شخصيات مصرية وغربية



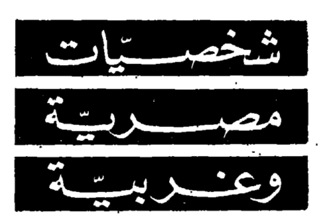


الدكتور محمد حسين هيكل



العدد الثانى





شخصيات مصرية وغربية

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

مقدمة

هنا مجموعة من الشخصيات البارزة في التاريخ القديم والحديث ، من بين من ترجمت لهم في ايجاز غاية الايجاز ..

وقد اختارت « روز اليوسف » أن تنشر هذه المجموعة بين سلسلة الكتب التي تريد أن تضعها تحت نظر قرائها فرحبت بهذا الاختيار وشكرت عليه ..

فالشخصيات البارزة في تاريخ الانسانية هي التي توجه هذا التاريخ ، وهي التي تصوره ، وهل من الناس من لا يذكر أسماء هؤلاء الاعلام في الشرق والغرب ممن وقفت عندها أنظارهم في مختلف العصور وقفة تقديس أحيانا واعجاز أحيانا أخرى وتقدير أحيانا ثالثة ؟

وهل من الناس من لا يذكر أسماء الانبياء والمرسلين ، والهداة المرشدين والفلاسفة والعلماء والشعراء ورجال الفن ومن اليهم وهم الذين نقلت عبقريتهم



الانسانية مرحلة بعد أخرى فى مدارج الحضارة ، وهم الذين بعثوا الى حياتنا الانسانية أجمل الصور وأسمى المعانى ؟ ٠

صحيح أنه نشأ الى جانب هؤلاء أشخاص لا يزال التاريخ يذكرهم كانوا شرا على الانسانية ونكالا بها ٠ لكننا يجب ان نعرف تاريخ هؤلاء كما نعرف تاريخ أولئك لانهم هم خطيئات الانسانية وأخطاءها ٠٠ والانسان لا يقدر الخير الا أن يقيسه بالشر ولا يسلك الطريق المستقيم الا اذا دفعته أخطاؤه فى عوج الطريق الملتوى الذى يحيد به عن الغاية التى يتوخاها ، فاذا وقفنا أحيانا من تاريخ الانسانية عند أشخاص أساءوا اليها فذلك لكى نعرف مبلغ اساءتهم ولنستطيع معالجتها أو تجنبها أو الوقوف فى وجه من يحاول أن يأتى بمثلها ٠٠ من ثم كان لترجمة هؤلاء من الفائدة ماللترجمة أولئك ، فتجنب الخطأ لا يقل أهمية فى الحياة عن السير المستقيم ٠٠

والاشخاص الذين يقف الناس عند تاريخهم ويترجم الكتب لهم يختلفون عن المجموع الذى يعيشون فيه اختلافا ظاهرا ، فأفراد هذا المجموع يعيشون عيشا رتيبا يكرر الواحد منهم نفسه كل يوم ولا يبتكر جديدا يزيد فى شخصيته ويرتفع به فوق الوادى شيئا فشيئا بما يميزه عليهم ويجعله محط أنظارهم ٠٠

فهذا الزارع الذى يذهب كل صباح الى مزرعته ، وهذا الصانع الذى يقضى كل يوم فى مصنعه يكرر كل منهما فى غده ما صنعه فى يومه ليكسب عيشه ، وتنقضى حياته وهو يكرر على السنين العمل ذاته ، بدأ أول صباه واستمر فيه صدر شبابه وفى رجولته وكهولته ٠٠ هو لا يبتكر جديدا ، وكل ما يمكن أن يقال عنه أنه أتقن عمله فبذ بهذا الاتقان أقرانه ٠ وان بقى منهم وفى غمارهم ٠٠ ربما أدى الاتقان الى أن يزيد كسبه ، ولكنه لا يزيد فى شخصيته ، فلا يرتفع به فوق المستوى الذى نشأ فيه ودرج على سنته ٠٠

ولقد ذكرت الزارع والصانع على سبيل المثال ٠٠ وأستطيع أنا وتستطيع أنت أن نضيف اليهما كل من يعمل فى طائفة من الناس ولا يمتاز عليها ، ولا ترقى به مواهبه الى حيث يصبح محط نظر الاجيال على تعاقبها ، سواء فى ناحية الخير والسمعة

الروحية وخدمة الانسانية ، أو فى ناحية تنال اعجاب الجميع ، عن ناحية الحرب والدمار ، أو ناحية الدم والعرق والدموع ..

وسيرى القارىء فى هذا الكتاب الذى نضعه تحت نظره اليوم صورا متباينة من شخصيات ترجم لها كثيرون لاعتبارات تكاد الصلة بينها تكون منقطعة تمام الانقطاع ..

فيرى ترجمة وجيزة للملكة كليوبطرة آخر ملوك البطالسة فى مصر ، وسيرى من هذه الترجمة ما كان لذكاء المرأة وجمالها على التاريخ من سلطان فى تلك العصور فانما أبقى اسم كليوبطرة على التاريخ حبها للعاهل الرومانى العظيم يوليوس قيصر أو حب قيصر اياها ، ثم حبها لمارك أنتونى أو حب مارك أنتونى اياها ، وما ترتب على هذا الحب من آثار فى تاريخ مصر ، وفى حياة الامبراطورية الرومانية ..

وسيرى القارىء كذلك تراجم لبعض رجال التاريخ الحديث أمثال الخديوى اسماعيل وقاسم أمين وعبد الخالق ثروت ومصطفى كامل ..

وقد كتبت هذه التراجم منذ ربع قرن أويزيد، وكنت صريحا كل الصراحة فى تصوير أصحابها .. وقد نشر بعضها فى كتب منذ عشرين سنة أو نحوها ، فلما تولى الملك السابق فاروق عرش مصر ، قدمت اليه نسخة من كتابى « الصديق أبو بكر » فطلب الى أن أبعث الى مكتبة القصر بمجموعة من مؤلفاتى ، وكنت واثقا من أن ماكتبته عن جده اسماعيل لايروقه

ولطالما سألت نفسى بعد أن قدمت الكتاب ضمن المجموعة ترى هل اطلع الملك السابق على ترجمتى لجده اسماعيل ، وان كان قد فعل فأى أثر تركته فى نفسه ؟

وسيرى القارىء فى هذا الكتاب كذلك ترجمتان احداهما للموسيقى العظيم بيتهوفن والثانى للشاعر الانجليزى الفحل شيلى، والذى لم يمنع من فحولته أنه مات فى الثلاثين من سنه .

وهاتان الشخصيتان تفسران لنا بوضوح كل الوضوح معنى العبقرية التى تخلد اسم صاحبها على الزمان كما خلدت أسماء ارسطو ودونتى وتولستوى وأبى العلاء وابن سينا وأحمدشوقى وغيرهم من الرجال الذين خلقوا فى الحياة خلقا جديدا ، فبقى ما خلقوا تتوارثه الاجيال فى العصور المختلفة والامم المختلفة

والذين برزت أسماؤهم بذلك فوق حقب التاريخ فكانوا أعلاما تهدي الانسانية طريقها الى الكمال والخير والجمال .

وهؤلاء الاعلام الذين سمو فوق مستوى الانسان فكانت شخصياتهم نورا يهدي الانسانية في تقدمها الى الحضارة لم تميز أصحابها يوم مولدهم أية علامة بارزة ليست لغيرهم من الناس ، بل خيل في كثير من الاحيان الى معاصريهم أن بهم شذوذا لا سبيل معه الى حملهم عبء الحياة ناجحين .. لكن هؤلاء الاعلام لم يلبثوا حين ألقت بهم الحياة في يمها المتلاطم الامواج ، أن رأوا هناك على أبعاد لا تلمحها غير بصـائر من النافذة أنوارا مستورة اذا ازيل عنها شرها عم ضياؤها الكون فجعل غاية حياتهم ازالة جانب من هذا الستر وجاهدوا في سبيل ذلك حتى بلغوا منه مقاما محمودا ..وهؤلاء الاعـلام يعيشون أغلب الامد في نصب دائم وجهد مقيم ، فلا يبلغون من متع الحياة ما يبلغه غيرهم ولا يتمرغون في نعيمها ما يتمرغ غيرهم فيه ..

وهؤلاء أيضا أشخاص لم يؤتوا شيئا من مواهبهم مع ذلك ، ترى هؤلاء الاعلام سعداء مطمئنا ضميرهم لكل جهد يبذلونه في سبيل الغاية التي جعلوها نصب اعينهم وجعلوا حياتهم وقفا عليها ؟ فاذا بلغوها أو أمسكو منها بأحد نواحيها صفق الناس لهم ثم خلدوا بعد موتهم ذكرهم على أنهم الهداة الباقون على الدهر بقاء الدهر ..

« محمد حسين هيكل »


كليوباترة

كليوباطرة ! اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الاساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وأفروديت وسميراميش وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك والشعراء والكتاب... فهى ليست جميلة وكفى ، وليست ملكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله . هى الفتنة والسحر والذكاء والادب والنشاط وقوة الارادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات • وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال • لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباطرة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون . ولذلك كان ما أريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية الاهة أو ملكة أخرى أن تفخر به •

وكان حظ كليوباطرة إن ولدت بالاسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال • وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما فى الحياة من متاع ونعمة • فكان الناس يتكلمون فيها كل اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار وجوار حسن ليس فيه شىء من الكفاح أو القسوة • فالى جانب الابيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخرا منها وازدراء لها واشفاقا على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة الى تعذيب الجسد لطهارة الروح • والى جانب مكتبة الاسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص

والملاهي يهرع الناس اليها لينسوا أنفسهم فى لهوها ولينهمكوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعا تموج فى محيط بلغ كمال العمارة التى قامت خلال ثلاثمائة سنة كانت منذ أنشأ الاسكندر الاكبر المدينةعام ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها .. فقد اتصل ما بين هذا الثغر البديع الموقع فى إمتداده على شاطىء بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقبغداوته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال والذى انتهى بالجزيرة الى أن أصبحت جزءا من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة المحمودية الحاضرة) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل قامت أثناءها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة .. فأما أهل هذه المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حراصا على المتاع بكل ما فى حياة مدينتهم الزاهرة متاعا عريضا ، يتهالكون فى ذلك على اللهو وعلى المسرة فى مختلف صورهما وألوانهما . فكما كانت فراعنتها تتفنن فى الترف بما يعجز خيال كل مترف فى عصرنا الحاضر كان الشعب ، رجالا ونساء ، منغمسا فى حمأة اللذائذ الدنيا مسلما نفسه اليها ما استطاع الى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا على الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الالهة حتى لقد دعوا جد كليوباترة البطين ودعوا أباها بطليموس أوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباطرة شديدة الولع منذ صباها بالتجول فى أنحاء الاسكندرية والوقوف على كل ما فى هذا العالم العامر بكل ما فى العالم من حياة وحضارة . وفى تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيرا . عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجهما الساحر وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسةالاسكندرية

يومئذ والتى تمتاز بالتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع غرام ليس مثلهما ولع ولا غرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلا للأوديسي على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره ما لم يعرفه ولم يتذوقه غيرها ممن لم يؤت ذ ناءها ولا علمها باللغات والآداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب .. له الخمر ديونيزوس يدللها بدل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة ليس لها فى بنات حواء مثال . فكان يطوف وإياها مدائن مصر ويركب وإياها النيل من الاسكندرية الى طيبة ذات الابواب المائة يقفان عندما يحلو لهما الوقوف عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فاذا تركا طيبة الى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف . وما ليس له مثال الا فيما اقامته كليوباطرة من المآدب لانطونيو حين غرامه بها ودلهها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم المقيم طويلا . وان كانت لم تحرم منه الا لتعود اليه فتكون به اكثر متاعا . ذلك ان أباها طرد من مصر فالتجأ الى سوريا حتى عاد مع جنـــد الرومان الذين أوفدهم بومبى . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وإياه الاسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباطرة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها ، فلما ايقنت بانتصار أبيها وبعودته الى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج اركايلوس خصم أبيها وجلست مع خديناتها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوبا رقيقا أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرا رغم ان كان فى بدأ ترعرعه . ولما أقبل ابوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند الى القصر أمامه شقت هى وسط الجمع طريقا واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر . وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره الى كل لهو ومسرة تلك الفتاة الطفلة ما تزال ، والتى برعت برغم

ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباطرة في دلهها وتيهها أن توجه اليه نظرة حلوة فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها اليها والى ملكه .

وعاد أنطونيو الى روما وعاد بطليموس الى الحكم والى اللهو يستمرىء مرعاه ويمعن فيه بعد ما حرم زمنا منه . وكانت ابنته تطوف واياه أنحاء البلاد ينزلان في المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة ما لا يباح لفتاة أن تعرفه . وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعا انتهت بموت الأب بعدما أوصى بالملك لكليوباطرة ولاخيها بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته . وكان زواج الأخ من أخته متعارفا في الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على أن لا يختلط دمها الفرعوني المستمد من الشمس كبيرة الإلهة بدم الرعايا . واذ كان هذا الاخ قاصرا عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم في الحكم وان استأثرت به دونهم الى الى حد عظيم ..

وقد ملكت قلب المصريين في الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها اياهم بفتنة جمالها حتى دعيت اذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم . لكن عهدها بذلك لم يطل . فقد بعث منيلوس يطلب اليها ارجاع الجند الرومانيين الذين ظلوا عندها .. واذ كان هؤلاء الجند قد استوطنوا الاسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب . ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبى لنفس القصد . وكان لأبيه على أبيها فضل اعادته الى ملكه مما أجلسها هي على العرش بعده - لذلك رأت واجبا عليها أن تحسن وفادته . وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجا لها . فقبلته ضيفا في قصرها وأجابته الى ما طلب اذ كان أبوه يومئذ في حرب مع قيصر . وقد غاظ ذلك أخاها منها فانضم الى المؤتمرين بها وعاون على انقضاض الشعب عليها ومحاولته قتلها .. واذ كانت لاتملك الفرار من طريق البحر فرت في ذهبية الى الصعيد كسيرة القلب ان لم يفعل جمالها في أولئك السكندريين فعله . ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف

المتلاف • وبدلا من أن تجعل مقامها فى طيبة الاحياء جعلت مقابر الملوك بموضع بجوارها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث واياهم آملة فى الآخرة ملكا آكثر من ملك مصر ثباتا • لكن أصواتا انبعثت اليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير أقدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح • وآيأستها دعة المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد • ففرت الى منوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة ولم يخنها حدسها • فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها واقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ووقف الجيشان وجها لوجه لا يلتقيان •

وفى هذه الاثناء هزم قيصر بومبى فى موقعة فرسالا وفر المنهزم الى مصر ، عله يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق • لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا ان هم حموا هذا الغريم آو ألجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ بهم • فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا زكبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبى أفخر طقوس الجنازة •

وعرفت كليوباطرة أمر ذلك كله ، وعرفت آكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من خرب نصب نفسه حكما بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمى روما ملك أبنائه من الشتات والدمار • هنالك فكرت فى أن تلجأ الى هذا الحكم ترفع اليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن آن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبى بالرجال والذخيرة • لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة الى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير اقدام • وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبى • فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الأمين أبو لودور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الاسكندرية • بقى أن تدبر الوسيلة للمثول فى حضرة قيصر • وكليوباطرة نحيفة القوام بضة لينة الملمس • فليس يعجز أبو لوردور أن يحملها

وأن يزعم أنها بعض المتاع وانه من رجال روما يريد ايصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة في بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئا من زينتها الملكية وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته انه موصل ما يحمل الى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله في رفق أمام الظافر على عاهل روما ، الباكي عليه حين وفاته .

وكانت هذه هي الساعة التاريخية التي اتجه فيها الزمن غير وجهته . الساعة التي وقفت ازاءها القصاصون والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال في زينة الملكة وعطرها وجلالها . أكانت طويلة أم قصيرة ؟ أكان أنفها كبيرا أم صغيرا ؟ لم يعرف قيصر في هذه اللحظة من ذلك شيئا ، واختلف المؤرخون فيه خلافا كبيرا . وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها . وكأنما بقي هذا الجمال في قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف في صورته وفي قسماته . على أن كليوباطرة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها . بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة ، وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف ، وكان صوتها أفعل سحرا من جمالها ، وكانت عبارتها أنفذ الى القلب من صوتها الى شغاف الفؤاد ومن جمالها الذاهب باللب . جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغي ، ثم صار لا يسمع دفاعا ولا شكوى بل أنغاما دونها صوت البلبل وعزف الناي . وانتهى بكليوباطرة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعا مستغفرا ثم حملها على كتفه كما حملها اليه أبولدور وذهب بها الى مضجعه .

وكان قيصر رغم تجاوزه الخامسة والخمسين محببا للنساء ، كما كان مثار اعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المهذب الرقيق وعزمته الصادقة القوية . لذلك اتصل بينه وبين كليوباطرة منذ هذه المقابلة الاولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما . وجلست هي الى جانبه في قصرها المنيف تعجب به وتثير اعجابه . وملكته حتى لم تبق في شك من حكومته

بينها وبين أخيها • ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ في عيونهما ما هاج الدم في عروقه الضعيفة • وما دعاه ليلقي التاج عن رأسه وليخرج صائحا في الشعب وفي جند روما داعيا الى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباطرة والخيانة صاحبها • ولم يرد قيصر أن يقاتل نقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضا عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه باشراف روما • ورضي الغلام آملا أن يطمئن له الأمر فيصير ملكا وفرعونا والها • وظل هو وكليوباطرة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين • ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة • ولم يكن ورد سعادتهما قاصرا على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصوت والتفس ، الرطبة الخلق ، الندية الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث • بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب • كبل كل واحد منهما صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية في قسوتها فسعد كل بأغلاله • وكانت كليوباطرة أكثر سعادة لانها استرد مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكسون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه في سبيل الجمهورية ليحارب في سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما ثبتت في قلبه ، وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئا ولا يبعث الى روما بخبر ، وان عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيرا • وزادت به ارتباطا وازداد لها عبادة حين حملت منه • اذ ذاك لجأ في أسباب المسرة يلتمسانها في كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة • فاقاما أعيادا عند الاهرام وأبي الهول ، وفي أبيدوس عند قبر ايزيس وأوزوريس ، وفي دندرة حيث معبد هاتور الهة النسل الخصب وفي طيبة ذات الابواب المائة ، وفي أنس الوجود ، وفي كل معبد وعند كل اله •

ووضعت كليوباطرة غلاما دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها • ثم أبحر قيصر الى روما ولحقت هي به في أبهة الملك وجلاله ، وفي

حاشية ليس للرومان بها عهد • وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر • وقد أقام لمناسبة عودته أعيادا أسرف خلالها فيما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه الى كليوباطرة عاما كاملا ، لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباطرة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر •

ولم يبن قيصر من ذلك بشيء • بل اقام لابنة بطليموس قصرا على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ماينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه • ثم جعل يستقبل أصحابه في قصر التبر ، ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباطرة شيئا • وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثا[illegible] صورة الزهرة آلهة الجمال والحب • ودار فى خاطره أن يتزوج منهـا رغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها • ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر الى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى ان يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعـدد زوجاته ما دام لا عقب له • ولقـد كان فاعلا وكاد قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقرا للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتله أصحابه يوم أعياد المريخ في العام الرابع والاربعين قبل الميلاد •

بكته كليوباطرة ثم عادت الى مصر مع حاشيتها وأبنائهـا وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبرا ،وأقامت بالاسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته • لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب • ولم يزل ذلك وجلها وظلت في خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو • لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة • فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو • وأنطونيو صديق قيصر ومحبه • وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة • وأنطونيو معجب بجمال

كليوباطرة منذ سنين ، عابد أياها مذ كان يزور فيضر فى قصر التبر • مع ذلك لم تر كليوباطرة أن تبعث اليه وفودا تهنئة بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه •
وهى لم تمدده فى حروبه مع قتلة قيصر بمدد من مال أو رجال فغاظ ذلك أنطونيو وبعث اليها رسولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها • وظل الرسول فى قصرها أياما عاد بعدها مسحورا بها آخذا نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر اجابة لطلب سيده • وبقيت هى زمنا تعتذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الأعذار • وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره • ثم بعثت هى انها آتية اليه فى تارسيس وذكرت موعد وصولها • فخف الحاكم الى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينها السابح تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش •
وقد ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية الهة أو ملكة أخرى
وبعث أنطونيو برسوله يدعوها للعشاء عنده ، فاعتذرت بأنها متعبة ودعته الى سفينها • فلم يغضب ولم يتردد بل طار اليها وقضى شطرا من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شىء غيرها • ثم دعته فى الليلة التالية الى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعا من الأمراء وأرباب الدولة • وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهارا ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحظ به خيال أحد منهم من قبل •• وكليوباطرة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحرا • وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه • فابتسمت قائلة : أنه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها •
ودعاها أنطونيو الى قصره ودعا معها الامراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى

محاولته عبثا • ودعته وأمراءه الى وليمة ثانية قالت انها تكلفها ثلاثة ملايين درهم • فأنكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته انها فاعلة • وكلف هو أحد الأمراء أن يحصى التكاليف • ولما رأى أن لم تزد الملكة شيئا على ما فعلت فى الوليمة الاولى أبدى لها أنه قمرها • فاستمهلته وخلعت من أذنها قرطا فيه جوهرة منقطعة النظير كان الاسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها فى كوب به خل فذابت وشربت هى الكوب وما فيه وقمرت أنطونيو • وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على أنها بعض العجائب •

وأسرع أنطونيو بالنظر فيما لديه من شؤون الملك وعاد وكليوباطرة الى مصر واندفعا فى سبيل الغرام تهيج سماء مصر فى نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتتان فيها ، على أن أنطونيو لم يكن مهذبا كقيصر ، بل كان جنديا خشنا فج الذهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الادب أو اللغات بشىء • وانما حببه الى الجند ورفعه الى مقام قيصر سهولة فى العبارة التى كان يخطبهم بها ونزول منه الى مشاركتهم فى تذوق اللذات الدنيئة السـافلة التى كانوا يتذوقونها • فلم يكن حى من أحياء الدعارة فى روما أو بغى من بغاياها لا يعرفه • وكان من أسباب فخره أن أعقب من الاولاد حيثما ذهب ما لا عدد له • ولقد أحب كليوباطرة بهذه الروح الحيوانية الملتهبة المتأججة الضرام ، فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن فى قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفـة الانسانية التى تغذى القلب وان قصرت عن الهاب الدماء • على ان هذا الخلاف بينهما اضطر أنطونيو الى أن يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباطرة ، ودفعها هى لتنزل عن التفنن فى رقة المتاع الى هذه البهيمية الثائرة • وقد أنفت ذلك فى بادىء الأمر حين كان حرصها على أنطونيو راجعا الى حاجتها السياسية له • لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه ان لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيا من رجال تلك الاحياء ونسائها على طريقتهم • وبقيا غارقين فى نعمتهما حتى حملت • وخيل اليها أن سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما

ربط بينها وبين يوليوس من قبل · لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها ، فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شؤون الدولة ، ورأى أن لا مفر له من العودة الى روما ليصالح أكتاف بعد ما حزبت عليه فلفيا زوج أنطونيو وهبت لمحاربته ، وليستعديه على أهل فنيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها · ولم تجد توسلات كليوباطرة اليه كى يبقى ولو الى حين وضعها · فلما قابل فلفيا فى اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها ، وغادرها الى روما فماتت قبل وصوله اليها · وأصلح موتها بينه وبين أكتاف وتزوج من أخته اكتافيا برضى مجلس الشيوخ · وكانت اكتافيا عدل كليوباطرة فى سنها وجمالها ، وكانت أم طفلين من زواجها الاول محبة لحياة العائلة ونظامها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها · فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده · ولقد ذهبت معه الى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له أثناءها ابنين شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا · فأحرج ذلك صدر أنطونيو منها وجعل يراها أما لا يعنيها منه الا أبوته لأبنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماما كالذى كانت تبديه كليوباطرة اذ كانت تدعوه أنطونيو الاكبر · وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على اخوتها لاكتاف منها على زوجيتها له ثم بعث بها الى روما وانطلق هو الى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده ·

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباطرة تعانى من الهم والألم أشدهما تبريحا ولذعا · علمت بما كان من زواج أنطونيو واكتافيا على أثر وضعها توأمين دعت أحدهما الشمس والاخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة · وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هذا الزواج اليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام أبيه · هنالك غادرت الاسكندرية الى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لها تور معبدا · ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى أحاطت بها فعادت الى عاصمتها وشغلت نفسها من جديد ببناء قبرها · وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود الى تذكر قيصر ·

ونجحت في ذلك نجاحا سرها • لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب في جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية • فعادت الى مثل ما عودها أنطونيو من المرح في الانحاء التي يلهو الشعب فيها • لكن ذلك لم يطفيء من رغباتها ما كان كامنا •

ولما عاد أنطونيو الى الشام بعث اليها رسولا يستقدمها اليه بانطاكية • ويل له من جريء ! أيظن أن ملكة الملوك تطير اليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها الى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباطره ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوته اياها فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر اليه لائمة عاتبة • وكفاها أن أقسم لها ان قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود واياه سيرتها الاولى : وانطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والاسكندرية فكان لهما فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتهما • ولكى تؤمن بحبه اياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التي غابها عنها •

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات ، ورفض مشيئتها أن تصحبه لما في ذلك عليها من مشقة • لكنه عاد الى سوريا محطما جيشه • فجاءت اليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته • وأقامت معه فأنسته فتنتها كل متاعبه • ثم تلقى رسالة من زوجة أكتافيا أنها آتية اليه من روما في عدة وعديد • فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته اياها بهذا الكرم والاخلاص والحب • لكن كليوباطرة وقفت في سبيل ما أتت أكتافيا فيه • ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مددا فعادت الى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة •

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو • فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم • لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره في روما ذهب يحتفل به في الاسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما • وذلك ما لا طاقة للرومانيين باحتماله • فأثار أكتاف الرومان عليه • وابتهجت كليوباطرة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم وسارت وأنطونيو الى أثينا

في انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه . لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب . فقد التقى الاسطولان في (أكتيوم) وكانت الملكة في سفينتها « الانطونياد » في مؤخرة الاسطول المصرى ترقبه . وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى . عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول . فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت رجالها بالعودة وما يزال الأمل في النصر مضطربا بين العسكرين . والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها في « الانطونياد » وعادا الى مصر وقد تولاه الأسى أن رأى نجمه يأفل وعظمتـه تذوى وتذبل .

فاما كليوباطرة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها ، بل نقلت أسطولها برا من البحر الابيض الى البحر الاحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر . لكن هيرود عدوها في سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها . هنالك تحطمت كل آمالها الامبراطورية واضطرت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر .

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره . وظل في شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفىء حياة ابن قيصر وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما . وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر . لكن الحظ اذا عثر لج به العثار . فانهزم أنطونيو فعاد الى قصر كليوباطرة وأمر أحد عبيده أن يقتله . فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى . فأصغر ذلك أنطونيو في عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصب وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت ، وقضى بين ذراعي محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته في القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت في الحزن عليها لما أحست من سوء مما أعد لها القدر من مصير بعده .

ودخل أكتاف الاسكندرية ظافرا وكل همه أن يقضى على

ابن عمه الذى فر من وجهه • وحاولت كليوباطرة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو • وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء • وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى • وكان كل همه أن يأخذها الى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخته منها وليقدم للشعب الرومانى منظرا تبتهج له قلوب الشعوب : منظر ذل العزيز • وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الاعظمين • لكنها لم تكن قادرة الا على نفسها • وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادما من أتباعها أن يحضر لها ثعبانا فى فاكهة طعامها يوم تشير له الى جبينها • وأشارت الى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها • ونزعت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث اليها الموت من خلاله ، وكم بعث هذا الثدى الحياة الى أبنائها والى الذين أنعمت عليهم الآلهة بالمتاع بها •

وكان معها خادمتاها ايراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ما حلتاها بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والذى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه ورفعته منذ مولدها الى مماتها (من سنة ٦٩ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد) •

ويومئذ ذهبت الى بارئها أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ • ويومئذ انطفأ نجم كان منيرا فى سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم •


الخديوي اسماعيل

لئن صح ان كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح ان كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الاثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن انما ترتب على حكم اسماعيل باشا ٠٠ فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع الى عهـده حيث تم انشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الاول فى النظام القضائى ٠٠ ثم ان عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه ، وتبعة الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال الى اليوم باقى الاثر ، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليا واقتصاديا وسياسيا الى أيدى الاجانب ٠٠ فهذه الستة عشر عاما التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر ، ومن فضائح الظلم المخرب ، ومن البذخ والاسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الاقاصيص لهما نظيرا ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر بعد أن جاهد أمته فأجهدها ، وبعـــد أن جاهد أوروبا فأخضعته لها ، وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشـــه وأخرجه من مصر حسيرا ينظر الى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير ، هذه الستة عشر عاما هى التى جرت الى مصر مظاهر الحضارة الاوروبية وهى التى جرت على مصر الخراب وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوما من الايام ، وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل ٠

ولم يكن عجيبا أن تترك هذه الاعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الاثر واسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق ٠٠ فقد كان بشخصه بطلا من أبطال الاقاصيص ، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم ٠ كان اسماعيل ساحرا أعظم السحر ذكيا أشد الذكاء وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل به ٠٠

وكان مع ذلك قصير النظر شرها فى كل مطامعه وشــهواته مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لا يهون منها أى حذر ..
وكان فيه من دم محمد على إقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة ... وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ما تبلغه من أذكياء الناس والبطاشين منهم .. ثم انه كان مولعا أشــد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الاوروبية وان غاب عنه الجانب المعنوى منها ، وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل ما فيها من قوة .
لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الاوروبية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهى . وليقول عن مصر انها اصبحت قطعة من أوروبا .. وفى سبيل ذلك أنشأ كثيرا وخرب كثيرا وأثقــل كاهل مصر بدين ما تزال تنوء الى اليوم به وما تزال تحتمل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها ..

***

ولد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى أنشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان الى باريس حيث التحق بها بمدرسة أركان حرب L'école de l'état-major ثم عاد الى مصر بعد أن أتم بها دراسته ..

وكان عباس الاول والى مصر يومئذ ... وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتســام التركة .. فذهبوا الى الاستانة يحتكمون الى جلالة السلطان وقضى جلالته النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله الى مصر سويا الخلاف .. وعاد أفراد العائلة العلوية خلا اسماعيل الذى ظل بالاستانة وعين فيها عضوا بمجلس أحكام الدولة العلية .
وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفا لعباس الاول . فاستقدم اسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالاستانة .. ولم يكن اسماعيل يومئذ وليا للعهد اذ كان أخاه احمد أكبر رجــال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد .. ولكن احمد توفى وآلت ولاية العهد لاسماعيل .. ومن يومئذ جعل سعيد

يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهمات خاصة الى البابا والى نابليون الثالث والى الباب العالى بالاستانة ٠٠ وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها ٠٠ ونجح اسماعيل فى ذلك وعاد وله فى أعين الشعب مقام كريم ٠٠ ولما توفى أخـــوه احمد وآلت اليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى الى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير ســـنة ١٨٦٣ ونودى به واليا مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالاسكندرية ، فلم يحتفل بالدفن احتفالا رسميا ولم يحفل بالمشهد أحد ٠٠

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لاول ولاية اسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعا عظيما ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، وأن أبدى اسماعيل من الحرص على حضارة مصر واصلاحهـا ما جعل الرجاء فى المستقبل عظيما ٠٠ وكان أول ما صنعـه اسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجا خلابا كله المبادىء الحرة والوعود المنرية بخير الامل والاصلاحات الواسعة على أحـــدث النظم الاوربية ٠٠ وفى هذا البرنامج وعد بالغاء السخرة والرقيق والاتجار به وباصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر ٠٠ وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتما على تنفيذه لما بدا على اسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة ٠٠ وزاد الناس رجاء فى ذلك ما كانت عليه حال البلاد اجمالا من الانتظام والطمأنينة

لكن اسماعيل حرص ، الى جانب نشر هذا البرنامج ، على نشر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا ٠٠ ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقديرات الرسمية التى عرفت الى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات ، فقد ظهر فى البيان الذى نشرته حكومة اسماعيل باشا أحد عشر مليونا ومائة وستين ألفا من

الجنيهات ٠٠ والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفا فى ذلك الوقت ٠٠ وانما السبب أن اسماعيل باشا كان يرى ما يقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لا سبيل الى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض ٠٠ لذلك أراد أن يبين للناس وللاوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئا لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات ، والذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد ٠٠

والواقع أن مطامع اسماعيل كانت عظيمة تنوء بها موارد مصر ٠٠ فقد أراد أن يصل الى ما رمى اليه جده محمد على من استقلال البلاد ٠٠ لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وانه على كل حال عرضة لان يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده ٠٠ وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى ، فاذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئا فشيئا ثم انه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته الا أن يظهر أمام أوربا حاكما غربيا يريد الاصلاح بالفعل ٠٠ فنشر البرنامج المشار اليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الانسانى على رعاياه ما جلب اليه أنظار أوربا ٠٠ من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد سلفه سعيد باشا وبين المسيو فردينان دلسبس لانه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون فى حفر القناة أشد ارهاق ، يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لا يقتضون عن عملهم أجرا ٠٠ ولما استمر الخلاف بين اسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث ٠ ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم الا على أنه نوع من الكبرياء والغرور ٠٠ فنابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ما تزال فى كل مظاهرها شركة

فرنسية تعنى امبراطور فرنسا حمايتها .. فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه أنه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر فى خلاف بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية .. وانتهى التحكيم بالزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضا من عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليونا من الفرنكات ، أى ثلاثة ملايين وثلثمائة وستين ألفا من الجنيهات .. فاذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والاذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الاعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز الى مصر ومعه الصدر الاعظم فؤاد باشا .. فكانت هذه أول فرصة عرضت لاسماعيل كى ينفذ ما جال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا اليها من قبل جده محمد على .. ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقى .. بل نفح الصدر الاعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التى أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان .. هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفا من الجنيهات .

على أن تباشير الخير التى جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء اسماعيل الى العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلا .. فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيها للقنطار الى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه .. وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الاهالى مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرون ألفا من الجنيهات .. ثم ان اسماعيل كان مغرما أشد الغرام بتملك الاطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة فى سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الاطيان المنزرعة فى مصر الوسطى وفى الوجه البحرى ..

ذلك كله مضافا الى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت

اليه الاصلاحات العامة التى بدأ اسماعيل باشا بالقيام بهـــا تنفيذا لبرنامجه جعل الالتجاء الى الاقتراض أمرا لا مفر منه ٠٠ وقد بدأ اسماعيل فعلا بالأقتراض منذ ولى الحكم ٠٠ فلمـــا انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء الى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لا بد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى أوربا ٠٠ ولم يجد اسماعيل عنتا فى استصدار تصريح بالاقتراض من الاستانة ٠٠ وبذلك استطاع فى ٨سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥ر٧٠٤٠٠٠ جنيه ٠٠

كيف صور اسماعيل لنفسه برنامج الاصلاحات العامة ، وما هى الطريقة التى أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الاوربية الا القليـــل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل الى مصر سدا لحاجات محمد على الحربية ؟؟ هى صورة غاية فى البساطة ٠٠ يجب أن تقيم مدننا أوربية النظام فى طرقهـــا وفى عماراتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الاوربية ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحـديدية والبريد والتلغراف فما يلبث الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها ٠٠ ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه ٠٠ أما الشعب فلم يكن اسماعيل يأبه له كثيرا لانه كان كغيره من الحكام الشرقيين الى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين الى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخـادم ٠٠ وقد أراد اسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والاصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه الا فى قرون ٠٠ فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشىء الدواوين ودور الحكومة ويغرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشـــة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل ٠٠ وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشى وما كثرت معه الديون السائرة التى كانت

يقترضها من المرابين الاجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد فى الالتجاء الى أوربا كى يعقد قرضا آخر ..

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له فى ثلاث سنوات ثلاثة قروض .. قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣٫٣٨٧٫٠٠٠ جنيهـا وقرض سنة ١٨٦٦ وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه .. لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئا مذكورا الى جانب النفقات الباهظة التى كان يقوم بها اسماعيل باشا ..

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكا على بلاد مستقلة استقلالا داخليا على الاقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالى بالاستانة ولقد كانت أول خطوة خطاهافى هذا السبيل أن حصل فى سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة فى أبنائه بدلا من جعلها فى أكبر العائلة كما كانت من قبل .. ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ما سلخا عنها من بعد حكم محمد على ..

ثم انه من بعد أن حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقا حميما للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذى يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله كى يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويرا من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادى والتجارى تغييرا خطيرا .. وكانت سنة ١٨٦٩ هى السنة التى حددت لهـذا الافتتاح .. وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايدا جعـل اسماعيل يفكر فى الحصول على المال للظهور بالظهور اللازم فى حفلة الافتتاح تفكيرا جديا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه.

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ الى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فيكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هـذه الزيارة بدىء

الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الاجنبيه .. فقد كان الى يومئذ كما كان الى يوم الغائه فى تركيا قائما على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته .. وكان من اثرذلك أن شعر الاجانب أنفسهم بالارتياك فى مقاضاة بعضهم بعضا .. فاستقر رأى اسماعيل ووزيره على اقامة المحاكم المختلطة ، على أن يشمل اختصاص هذهالمحاكم الشؤون الجنائية كذلك .. ومنذ هذه الزيارة التى قام بهـا اسماعيل لاوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الاجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ .. انما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه اسماعيل باشا المفتش وزير مالية اسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون اسماعيل فى سنة ١٨٧٠ كما سنرى، وقد نجح اسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه مبلغ٧٫١٩٣٫٣٣٤ جنيه .. وقد قبل اسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على أنه كان فى أشد الحاجة الى المال .. وكان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل اسماعيل الاكبر ..

فلقد حرص على أن يدعو الى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم .. وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعا كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلادا غربية متحضرة .. وفى الحق أنه أعد لهذا المظهر خير عدته .. فقد بنى فى القاهـرة قصورا تضارع أفخم قصور المدائن الاوربية العظمى .. بنى قصر الجزيرة الذى انقلب فى العهد الاخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل .. وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيرا الى الامراء آل لطف الله .. وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعتز به مدائن أوربا .. ثم أعد مسرح الاوبرا وكلف الموسيقى الايطالى

الكبير فردى فوضع أوبرا عايدة لتمثل أثناء حفلات الافتتاح ٠ وأنشأ حديقة الازبكية في وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة في العواصم الكبرى .. وليتيسر للزائرين وبخاصة الامبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الاهرام في أشهر معدودة ٠٠ هذا الى ما مد من خطوط السكة الحديدية ، والى ما شيد من مدينة الاسماعيلية على ضفة القناة كما أنه كان قد أنشأ في مختلف أنحاء القاهرة كثيرا من المدارس الجديدة كما أعاد المدارس التي كانت قد أنشئت في عهد جده محمد على باشا واضمحلت من بعده ٠٠ فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والالسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس أخـــرى كثيرة في القاهرة والاسكندرية والارياف ٠٠ وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وان يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الاعظم سلطان تركيا ، وانه اذا طلب يوما أن يستقل بحكم مصر فطلبه لا شيء من المبالغة فيه ٠٠

وسافر من جديد الى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعدما دعا كل الرؤوس المتوجة الى حضور الاحتفال بافتتاح القناة ٠ وقد أجاب الدعوة منهم عدد منهم غير قليل ٠٠ ثم تم افتتاح القناة في خمسة أيام ٠٠ ففي ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها (النسر) سفير الامبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث التي جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا المســـافة من بور سعيد الى الاسماعيلية في ذلك اليوم ٠٠ وبعد أن أقيمت في الاسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧ و ١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر ٠ ولم يكتف اسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام انحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضاع حضارة أوربا ٠٠ وقد كلفته هذه الاعياد الباهرة ، حسب التقـديرات الرسمية ، أربعة ملايين من الجنيهات ٠٠

وانتهت الاعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخـــلابة وأجال اسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فاذا خزانة الدولة

ففر ، واذا هو فى أشد الحاجة الى المال ٠٠ ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بأن لا يعقد قرضا جديدا قبل مضى خمس سنوات ٠٠ فلجأ الى المرابين من جديد ولجأ الى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه ٠٠ فكان يبيع آلاف الارادب من الغلال قبل زرعهـا ويقبض ثمنها ، فاذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالا ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الاسعار التى باع بها ٠٠ ولجأ الى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا رغم ما أصاب وزراؤه من أموال اسماعيل أن يبعث له يحظـر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه ٠٠

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة اسماعيل الصلب ولم يثن من ارادته ٠٠ يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الابواب والنوافذ نثرا ٠٠ وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : ان سيدكم قد عرف أخيرا كلمة المستحيل ٠٠ كلا !! ليس هذا من خلق اسماعيل ٠ فليعقد اذن قرضا ترهن أملاكه الخاصة لسداده ٠٠ وعقد بالفعل قرضا خاصا فى سـنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه ٠٠

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره الى التوسع الاستعمارى ، ولقد أصاب من ذلك حظا من النجاح غير قليل ٠٠ ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطىء الشرقية من السويس الى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع ٠ وفى سنة ١٨٧٤ ضم دارفور الى مصر واحتل هرر ٠٠ وقد أدى احتلال هرر الى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه ٠٠ على أن ذلك لم يصدها عـلى التوغل جنوبا الى حدود أوغندة ٠٠ وكان من أكبـر رجـال اسماعيل المسئولين فى السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون ٠٠ ولعل ذلك كان أول ما دعا انجلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسه التى رسمتها نفسها

فيه والتي أدت الى مركز السودان الحاضر ..

وكانت هذه الاعمال ، وكان اسراف الحكومة في مصر ، وكانت نفقات اسماعيل ومن حوله تجعل كل مبلغ مهما كان ضئيلا لا يقوى على سداده .. لكن اسماعيل بأننا بدأ يرى هول الديون التي استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير في السعي للتخلص منها .. ولعله كان مخلصا في سعيه وان كانت كل الوسائل التي ابتدعت لجلب المال لم تنجح في أكثر من أن زادت الخديوى مطامع وسرفا .. وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته : أن ديون مصر الى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فاذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات أمكن سداد الدين .. ومقابل هذه الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبدا من نصف الضريبة التي عليهم وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولى الامر . وبدأت الحكومة فعلا تسدد الدين السائر . لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتها مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليونا من الجنيهات .

ولما كان موعد الخمس سنوات المحدد في عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء رأى اسماعيل أن يستأذن الباب العالى في قرض جديد يوحد به ديونه .. واتفق فعلا مع بيت أوبنهيم الذى أصدر قرض سنة١٨٦٨على أن يصدر قرضاجديدا قيمته اثنان وثلاثون مليونا من الجنيهات لهذا التوحيد .. على أن كل ماحصلته الحكومة المصريةمن هذاالمبلغ كان ٢٠ر٨٤٠ر٠٧٧ جنيها . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليونا ..

ثم ان الخديوى كان قد اضطر الى انفاق مبلغ ضخم في الاستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة في بكر الأبناء على نحو ما صدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا الا أن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة .. وزاد هذا المبلغ في مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه .. لذلك لم يفلح القرض

في سداد الدين السائر .. واستمر اسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها في هذه المرة سندات الرزنامة وقد حصلت الحكومه من هذه السندات ٣٫٣٣٧٫٢١٠ جنيه فلم تكف هي الاخرى مضافة الى الدين الجـديد لسداد الديون السائرة .. ولم يبق أمام اسماعيل الا بيع أسهم الحكومة في قنال السويس .. ولقد عرضها للبيع في السوق العالمي لكن انجلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت في وجه فرنسا واشترت الاسهم من اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة في ١٨٧٥ !!

وفي هذا العام الذي أطل فيه الخراب محدقا بعينيه البشعتين في وجه اسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا ، وافتتحها اسماعيل وهو ما يزال يأمل في ان أعمال الحضارة التي قام ويقوم بها في مصر تسمح له أبدا بأن يجد من الدائنين من يثق به ، ناسيا أنه كان قد رهن كل ايرادات الدولة وكل أملاكه الخاصة وان الثقة به تزعزعت في كل مكان .. لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الاعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذي نشره اسماعيل لا في مصر وحدها بل في أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها ـ في السودان وتركيا وفي فرنسا وفي انكلترا وفي كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه ..

سنة ١٨٧٦ !! نعم هي السنة العصيبة في حياة اسماعيل لانها السـنة التي بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة .. والعجيب أنه واصل هذا الصراع وما يزال واثقا من نفسه ومن حيلته . لذلك كان اذا اضطر الى الاذعان يوما لم يكن ذلك منه حرصا على الوفاء ولكن انتظارا لفرصة النكث والاخذ بالثأر .. لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافا برغم أنه كان في داره .. وعلى الرغم من كل الوسائل التي لجأ اليها فقد انتهى آخر الامر فأسلم نفسه للمقادير التي قضت بخلعه وابعاده عن بلاده بقية حياته ..

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن اسماعيل هو الذي ألقى لاوربا بأول فكرة للتدخل في شئونه وشئون مصر تدخلا

ينتهي في أمره هو الى الخلع ، وفي أمر مصر الى الخضوع لنير أوربا أولا وانكلترا أخيرا ٠٠ ذلك بأنه لما ثقل حمله وايقن أن لا وسيلة الى الاقتراض من جديد الا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته الصدوق فرنسا فألفاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ ٠٠ عند ذلك فكر في مصادفة انكلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب اليه أن يعين انكليزى مستشارا للمالية المصرية ٠٠ وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانكليزى ٠ فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل ٠ واهملت انكلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة ٠ يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر بعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف ٠٠

ولم يترك اسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته الا بذلها ٠٠ وقدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة الانجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديوى حرجا ٠٠ ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لايزيد المركز سوءا وانه على العكس من ذلك يبين للناس أن ماافترضته مصر انما انفق أكثره في أعمال مثمرة ان لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه ٠ على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن لا بد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعا ٧ في المائة ٠٠ ولم يعجب اسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك اشهار افلاسه أسوة بمتبوعه الاعظم سلطان تركيا ٠٠ لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع اليه فتلافاه بأن أصدر قانونا في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبانشاء صندوق خاص بعملياته ٠٠ وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الاجانب بالاتفاق مع دولهم ٠٠ وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لاوربا ولتدخلها في شئون مصر الداخلية ٠٠

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التي بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية ٠٠ فذهب المستر جوشن والمسيو جوبير

مندوبين عن الدائنين لاجراء هـــذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنه ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة وديون اسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشيء منصبى المراقبين العامين أحـــدهما انكليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل ايرادات الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها ، وينشأ كذلك ادارة للسكة الحديدية مكونة من انكليزيين ومصريين وفرنسى واحد ، على ان يكون الرئيس انكليزيا .. وبهذا الدكريتو أصـــبحت الحكومة المصرية فى يد صـــندوق الدين والمراقبين الاجانب وأصبح اسماعيل صورة لا يطلب منها الا أن تكف عن الاذى .. وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ اسماعيل يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق الى هاوية الفناء ..

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله ؟ لم يكن فى نظر اسماعيل باشا الا أنه العبد الخاضع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية .. ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة وانما كانت ميزانيتهـــا ما تتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى . ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول اسماعيل : « أريد » لتتحـرك كل الحكومة كى تنفذ ارادته .. والناس على دين ملوكهم .. فكان كل موظف فى الحكومة كاسماعيل ، شهوة وقسوة .. وكان ما يطلبه اسماعيل يجبى من الناس أضعافا مضاعفة سدا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة .. والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب ، ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب .. وأى عذاب وأية لعنة !!

وكان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا ، فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربة تحرك فى نفوســـهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الانسانية ، بل كانوا من الاكراد والجركس والارمن والالبانيين وكانوا قساة القلوب غلاظ الاكباد على عقولهم أقفالها ، لا

يعصون اسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

لذلك كان طبيعيا أن لا يتحرك الشعب لتدخل الاجنبى فى شؤونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا في شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لايكفى ليقوم شعب هذه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة ، وبخاصة اذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والاذى ..

وبدأ اسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه جلس حسيرا في قصره متلولة يده يشهد بعينى رأسه ما جر اليه بذخه واسرافه من خراب وسمح لاذنه أن تسمع لاول مرة ما يضج به الناس من ألم وشكوى .. وماذا يعنى الناس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر والحان تعزفها الحسان اذا كان ذلك كله يشاد من دمائهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد اسماعيل شعورا بالكارثة أن استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التى جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الارهاق ، ولم يبق منها شيء يدفع للموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة .. وتشكلت من مسيو دلسبس رئيسا ومن مستر ريفرس نائب رئيس ، ومن أعضاء صندوق الدين الاربعة .. وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام اسماعيل وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريرا مبدئيا كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديوى واعتباره مسؤولا عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك اجراء اصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة للضرائب وأن تخصص ايرادات أملاك الخديوى كلها ومساحتها ٩١٧ر٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية ..

تردد اسماعيل بادىء الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردده لايفيده شيئا بعد أن أصبح الامر كله للمراقبين

ولصندوق الدين ، وانه اذا قبل ما أقترح عليه فقد يفتح ذلك امامه بابا جديدا للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الاخرى فى تدبير وسينه من هذه المراقبه التى غلت يده ..
وتحت ضغط نوبار باشا أعلن الى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبوله اقتراحات اللجنة .. وفى ٢٨ أغسطس أصدر الامر العالى المشهور بانشاء وزارة (يحكم هو معها وبواسطتها وتكون متضامنة فى مسئوليتها) وشكل نوبار باشا الوزارة واستعان فيها بالمستر ويفر ولسن ..
ومنذ طلب نوبار باشا الى المستر ريفرس معاونته فى الوزارة قام الاخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسدد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية .. وقبل ان يوقع عقد القرض اصدر اسماعيل دكريتو ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٧٨ تنزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٢٧٩ر٤٢٥ فدان خلا العقارات ، واعتبرت هذه الاملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد ..
وفى شهر اكتوبر أصبح المستر ولسن وزيرا للمالية والمسيو دبلنيير وزيرا للاشغال العمومية والغيت بذلك الرقابة الثنائية على ايرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود اذا عزل هذان الوزيران الاوربيان من منصبيهما من غير موافقة انكلترا وفرنسا .. وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل همها أن تسدد الديون وأن تتلافى عجز الميزانية ، والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغا ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت الى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت اليهما أشد الحكومات عسفا واستبدادا .. وزاد الموقف حرجا أن رأى وزير المالية الانكليزى الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لاكثر من سنة كاملة .. هنالك هاجوا وقاموا ومن بينهم احمد عرابى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضربا .. ولما نمى الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه .. فلما رآه

الضباط وأمرهم بالانصراف لم يحض أمره منهم أحد مما دل على أن له في تدبير هذه الفتنة يدا .. وقد ثبتت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوعز الى أكثر الضباط اقداما وجرأة بالقيام بها ..

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عـــدد غير قليل من المصريين الصميمين .. ولعل ذلك هو الذى أدى الى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابية .. فان المــوظفين والضباط من الشركس والارمن وغيرهم ـ ممن كان بيدهم الامر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب ـ شعروا بفشلهم وبعجزهم اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة .. ثم أن ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر ادى الى تحـــرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد .. فقد طلب الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كي تعامل معاملة المفلس شأن ديونها .. هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديوى برنامجا ماليا يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بافلاس مصر .. ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به ، بل تقدموا كذلك بعرض للخديوى يبينون فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم .. وانضم الخديوى لهذه الحركة وعضدها ، لانه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته اليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت الى أيدى الاجانب .. وبلغ من تعضيده اياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن اليهم انتهاء الدورة .. وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه اسماعيل فى سنة ١٨٧٦ صورة يوهم بها الدول الاوربية أن مصر أصبحت بالفعل جزءا من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته .. لقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لانها لم تكن تعترف بوجوده وبمسئوليتها أمامه .. وفى ٥ ابريل طلب الى الخديوى تعديل قانون الانتخاب واعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب .. ولم يقف عند ذلك بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وابالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها .. ولم يلبث اسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج

حتى عـــزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ٠٠ وفي الشهور الثلاثة التي انقضت بين توليهـــا وخلع اسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب كما نشرت في ٤ يونيه لائحة مجلس شورى النواب وتنص على المســـئولية الوزارية ٠٠ ومع أن هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ومع أنها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ ابريل سنه ١٨٧٩ يكفل للاجانب حقوقهم ويقـر المراقبة الثنائيه وصندوق الدين فى اختصاصهما الواسع فان أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه، وان خيرا للمصالح الاوربية الوقوف فى فى سبيله ٠٠ فبدأت ألمانيا والنمسا بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ ابريل بدعوى انه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديوى ٠٠ وفى ٨ يونيو احتذت وزارتا باريس ولندره مثال ألمانيا والنمسا ٠٠ وقد حاول اسماعيل القضاء على هـــذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتور ، ولكن حركته هذه لم تنجح ٠

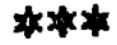
وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل ٠٠ ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للامة واظهاره العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة وسلطان لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش ٠٠ لـكن اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلالة سلطان تركيا آملا أن يكون لما قدمه من طائل الاموال وعظيم التضحيات بعض الاثر ٠٠ وهنا خاب فأله ٠٠ فقـد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافا بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه ٠٠ وعـــلى أثر ذلك أقلع اسماعيل من الاسكندرية قاصدا ايطاليا وقلبه خافق وعيونه هامية بالدمع ٠٠ وأقام فى ايطاليا زمنا ثم انتقل الى الاستانة اذ أقام بها فى قصر « أمر جيان » على شواطىء البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥ ٠٠

***

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الاربع عشرة التى انقضت

بين عزله وأجله أن يعود الى نضال يسترد به عرشه ٠٠ وكان أول ما صنع من ذلك أن بعث الى السلطان على اثر وصوله الى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الاصلاح فى وادى النيل وما قام به من فتح السودان الى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الانحاء فى ربوع لم تخفق من قبل قط عليها ٠٠ ولكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه ٠٠ بل نسى كل ماضى اسماعيل وما أغدقه على الاستانة ورجالها من مال وأنعم ٠٠ وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية ٠ وأصحاب العروش لا يعنون الا لصاحب القوة ما داموا يهابون قوته ويطمعون فى خيره ومعونته ٠٠ ونال ذلك من نفس اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر ٠٠ هنالك حز الالم فى نفسه وأذكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الابطال ٠٠ ولو انه قاوم فربما كان له من الاقدار عون يستبقى نجمه عاليا ٠٠ أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الاقدار مددا وهى لا تمد الضعيف أو الخائف وانما تحارب فى صف الشجاع المقدام ٠٠

ومنذ دخل الانكليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه ٠٠ فظل فى ايطاليا حتى انتقل الى الآستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الاتراك الذين طالما تمتعوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته ٠٠




مصطفى
كامل

في عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينا أنا جالس مع احد زملائي طلبة مدرسة الحقوق الخديوية اذ ذاك على باب داره جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جوادا ، فلما كان بازائنا وقف برهة فحيانا وقال : « أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى » ٠٠ وكان زميلي من المتشيعين للحزب الوطني المتطرفين في تشيعهم فلما سمع قول الناعي ساله في لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقا جواده : نعم ! ولكم طول البقاء !٠٠ وتركنا أنا وصاحبي واجمين من هول الخبر وان كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر في ذلك الحين وبعد زمن قصير تركت صاحبي عائدا الى بيتي فالفيت على الناس في الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعى الباشا اليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والالم ٠٠ ولم يستقر بي المقام في البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغني الخبر ويعلن الى ما قررته المدارس كلها من الاشتراك في تشييع جنازة الزعيم العظيم ، وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام في العاصمة وفي مصر كلها لم يشغل الناس شيء فيه غير جنازة الزعيم الشاب ٠٠ فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر في تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الامن والنظام ، والاجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون في العمق الذي تغلغل اليه الروح الوطني من سويداء نفس هذه الامة ٠ فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواي الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعي مصطفى كامل أكبر الاثر في العفو عنهم ، صمت كل المدينة ولم يبق منها أثر لحياة الا في مشهد وداع هذا الراحل رحلة الابد ٠٠ قال المرحوم قاسم امين في كلماته التي نشرت بعد موته ، أي بعد شهرين من وفاة مصطفى كامل :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة

الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ..

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الايدى وفى الاصوات .. كان الحزن على جميع الوجوه .. حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول .. ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة .. منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ..

« ولكن هذا الاحاء فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان ..

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

« هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الامة ، من دمها وأعصابها ، هو الامل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » ..

ولم يكن عجيبا أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب .. ولم يكن عجيبا أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب .. فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الامة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن الا بتخفيف الاعباء المالية ناسيا كل اعتبار غير تخفيض الضرائب .. ليخيم على البلاد الجهل ، وليكن الغرض الاسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير ما دامت الضرائب المرهقة وما دامت السخرة والكرباج قد ألغيت .. فى هذه الفترة التى شعرت فيها الامة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الانسانية ، بعث القدر مصطفى بشيرا بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت عالى الكلمة طلق اللسان قوى

الجنان حلو الاسلوب يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم في غور أعماقها .. فكان طبيعيا أن يلتف الظمأى حول هذا المورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الاناشيد التي تطرب لهـا نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفسا .. ليكن ذلك الكلام غير ذي غناء .. ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير في طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذي يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئا .. ألست ترى الى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذي المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يلبث أن يذهب لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه .. وهو لهذا المغنى أشد حبا منه لمن يمسك عليه حياته المادية ، لانه يحس في الشاعر معنى انسانيا ، في حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه الا الابقاء على حياته الحيوانية البحتة ..

لذلك جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل .. وكان حقا أن يرى قاسم أمين في وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن انه وهبها حياته ، وحدة في الامل الكبير بمستقبل زاهر ..

***

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، أى في السنة التي ولد فيها الخديوى عباس حلمي الثاني .. وقد بعث به أبوه على افندي محمد ، وكان مهندسا ، الى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القربية الابتدائيتين حيث تلقى دراسته الاولى .. وفي أواخر أيامه بهما توفي أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الاشـغال ، وبعـد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية ــ الخديوية الآن ــ لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر جريئا أكثر من زملائه جميعا .. وجرأته هي التي جعلته دون سائر اخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف اذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى الى رسوبه ورسوب زملائه .. واعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة

هو الذي جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدي ذلك الى نجـــاح مصطفى وكثيرين من زملائه ٠٠ فلما اتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فى العام المدرسى ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ ٠ ومن ذلك التاريخ بدا ينشر رسائل ومقالات فى الصحف ، كما أنه ، عــلى ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديوى عباس حلمى الثانى برابطة كانت ذات اثر مباشر فى حياته كلها بعد ذلك ٠٠

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشباب الذى اصطفاه عباس الثانى ، ولا كان هو وحده الذى أثر ارتباطه به فى حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والاقدام فعاونهم فى دراساتهم وعاونهم بعـــد الدراسة ، وأوفدهم الى أوربا لمهمات سياسية يؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعى ٠٠ وسياسة عباس الثانى كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الانجليز ، فانه ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد ندا له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستشارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة ٠٠ وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد ، مدفوعا بحماس الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر معها الى الاعتذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصرى بالسودان ٠٠ وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حـــركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر ـ كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس ترددا فى مشاركة الامير الشـــاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشر من عمره مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد الا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل استبداد الانكليز الذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية ٠٠ وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم ٠٠ فقد جمع الى الشباب اقداما جاوز حدود الاقدام مع نشاط عصبى لا يهدأ الا أن يهد المرض

صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة ·· وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات في الصحف بل أنشأ ، وما يزال في أول سني الحقوق ، مجله أسماها المدرسة ، صدر اول أعدادها في ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيما لزملائه في الدرس يلقي عليهم النصائح ويرشدهم الى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التي يرسبه اليها اختياره الشاب في بطون الكتب والنشرات الدورية ··

وفي يونيه سنة ١٨٩٢ سافر لاول مرة الى فرنسا ليؤدي امتحان الحقوق الاول بباريس ·· وكان طبيعيا أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر في نفسه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة ·· وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها ألمانيا ، وجعلت تذكر في حسرة تدليها من الصف الاول في تصريف سياسة العالم . والشعور بالالم يحفز الاحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والامل ·· وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضا كما تأثر بالحضارة وبالحرية ·· وزاده تأثرا معاودته الحضور للامتحان في سنة ١٨٩٤ بباريس وفي أواخر هذه السنة بتولوز حيث نال اجازة الحقوق ·· ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها ·· ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر وما دار بينها من حديث كان له في العالم السياسي قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها فحالفه الفوز لما تجهت اليه الانظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته ·· فقد نشرت جريدة الاهرام الصادرة في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (حديث ذو شأن) موقعا بامضاء مصطفى كامل حاويا لما دار بين المصري الشاب وبين الضابط الانجليزي من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة انجلترا في مصر مؤيدة بالتدليل القاطع الذي لا يعرف حجة ولا جدلا: دليل قوة السيف والمدفع ·· وأفضى فيها المصري الشاب بحجة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته في ذاته وعلى أوربا التي لا تنظر الى انكلترا في وادي النيل بعين مطمئنة

المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها الى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وانكلترا اتفاقا انضمت اليه ألمانيا والنمسا .. قال مصطفى : « ان لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها واخلاصها .. ولنا أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العدة بأن تناصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها » ..

وربما كان للخديوى ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم الى بعض دولها لمناوأة البعض الاخر .. فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها الى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه .. بل كانت المنافسات ما تزال على أشدها بين انكلترا وفرنسا وكانت ألمانيا الناشئة متطلعة الى مثل الامبراطورية البريطانية وكانت النمسا تنظر الى ماضيها بعين الوجل اذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الاستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية .. فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضا ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعا لتتخلص منها جميعا ولتصل الى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل اليه اسماعيل باشا ؟..

والواقع أن فرنسا كانت ماتزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد احجامها عن الاشتراك مع إنجلترا فى التدخل المسلح سنة ١٨٨٢ .. وكان ألمها أشد لان هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على مانالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٨٩٧ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده ، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة .. وزاد الجرح ايلاما أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الاقصى بسبب تغلب انكلترا عليها فى الهند وفى غير الهند من الممتلكات ..

وقد أراد الخديوى مستترا وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة .. وكانت القاعدة التى

رسمت أن تطالب الدول الاوربية انكلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ، وان تدفع الدول الاوربية الى هذه المطالبة ببيان ما تقوم به إنكلترا في وادي النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه .. وبان حديث مصطفى كامل مع بايتن بارتيج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل .. ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت انكلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه .. وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضا .. ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى الى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ .. ولعله وحده ، بل لعل الحكومه الفرنسية وحدها لم يكونا كل السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالاسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائدا الى بلاده فى ١٣ ابريل من ذلك العام . وفى يوم ١١ ابريل التقي دلنكل بالصحفيين فى الاسكندريه وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكرا اياه وشاكرا فرنسا منتظرا منها معونة مصر وتأييدها ..

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لاخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الاورطة البيادة الاولى أسر اليه مصطفى بأنه مسافر الى باريس .. وقد دهش على لهذا السفر المفاجىء على غير ميعاد وبلا سبب .. وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره انما تدعو اليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة ..

وسافر مصطفى الى باريس .. والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لا تتاح لفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لا يؤتاه كثيرون .. فذكر بديا أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى .. والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلعه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ .. لكن الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين .. واذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا

الحزب الذى تغلب عليه الانكليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل ..

ثم انه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعه لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين الى فرنسا يستنجدونها لتفك اسار وطنهم .. ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الابيات :

أفرنســـا يا من رفعت البـــلايا
عن شـــعوب تهـــزها ذكراك
انصرى مصر ان مصر بســـــوء
واحفظى النيل من مهاوى الهـــلاك
وانشرى فى الورى الحقـــائق حتى
تجتـــلى الخـــير أمـــة تهـــواك

ومن هذه اللوحة طبعت ألوف وزعت فى أنحاء العـــالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس .. ومما جاء فى هذه العريضة قوله :

« جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة ــ فرنسا ــ التى حررت عدة من الامم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على أن أذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الامم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .. فلتحى فرنسا محررة الامم .. »

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجة كبيرة فى العالم لفتت اليه الانظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الانكليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته الى مقامات خاصة فى مصر .. وشد هذا النجاح الاول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة وما يزال فى مقتبل شبابه .. وزاده جرأة واقداما فجعل يطوف عواصم

أوربا يتحدث فيها الى الصحفيين والساسة مذكرا اياهم بوعود إنكلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم في أن يتم هذا الجلاء. ثم عاد الى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الانكليزى لمصر .. وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب الى لورد سالسبرى ردا على خطاب كان الوزير الانكليزى قد ألقاه في جلدهول عن سياسة أوربا نحو تركيا .. وفي خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة .. وفي ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب الى المستر جلادستون يطلب اليه، رغم وجوده بعيدا عن الحكم ، تصريحا فى شأن مصر .. فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة : « وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين » .. وعاد بعد ذلك الى مصر حيث اقام بها حتى أغسطس اذ شد رحاله الى أوربا من جديد . وأثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الاول بالاسكندرية كما كثر المتصلون به من المصريين .. وفى هذه الفترة أيضا نشرت له جريدة الإكلير الفرنسية التى تصدر بباريس حديثا عن الحملة المصرية الانكليزية الى السودان معتبرا اياها وسيلة الى اطالة أمد الاحتلال الانكليزى اطالة لا نهاية لها .. وفى هذه الفترة أيضا اتصل علنا بالخديوى اتصالا زاد العلاقات بين لوردكرومر وعباس توترا .. ثم سافر فى أول أغسطس الى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا على التدخل لمصلحتها .. وفى هذه المرة كان يذكر الخديوى عباس وميوله نحو مصر وان « خطته هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة » .. ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر الى برلين ومنها الى فينا فالاستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان .. قال فى كتاب له الى أخيه على فهمى كامل : « وكان جلالته ، كما أبلغنى الباشكاتب ، يود الانعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الاعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حبا فى الظهور وفى مثل هذه الالقاب الكاذبة » ..

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنه متنقلا بين عواصمها متحدثا الى رجال الصحافة والسياسة فيها داعيا اياهم ليستوفوا انكلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثا عن المصريين تارة وعن المسلمين طورا ، كل ذلك فى لهجة أدنى الى الاعتدال وان وصفها الانكليز بالتطرف .. وقد بقيت من أساليبه فى الدعاية السياسية اذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الاسكندرية وغير ضرب الاسكندرية من الحوادث التى أدت الى الاحتلال البريطانى لمصر لكن السياسة الانجليزية جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما افضى به الكولونيل بارنج الى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ .. فكانت الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتهم فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة انكلترا فى مصر .. ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه واقدامه وان يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى .. وكان الالتجاء الى الباب العالى بعض هذه الوسائل ..

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية .. وفى هذه الاثناء كثر تردد مصطفى كامل على الاستانة وازداد اعجاب السلطان عبدالحميد به فأنعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الاولى وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل ..

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم انكلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الاوربية .. وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انكلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية .. وبهذه الفكرة تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ .. ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس

من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الاسلامية القومية التى يمكن أن تتجه الشعوب الاسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى .. أما فيما يتعلق بسائر الدول الاوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وان ظل مستمسكا منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الامل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عاليا خمس سنوات تباعا فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الانسان على ألا ينكر شيئا من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للانكليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالايمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والاخلاص له وبالامل دائما فى ثمرة السعى الصالح لفائدته ..

وعجيب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكيا جريئا ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع اعجابه بالمدنية الاوربية اعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعيا فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ وكان منطقيا أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠ ، لكن الامر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدودا لقاسم أمين ولافكاره وكان ميدانا لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الاصلاحات الاجتماعية كلها محافظا بل رجعيا مستمسكا بالقديم أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهما حرم عليه وهو مستشار بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فأن تعليل رجعية اللواء فى الشؤون الاجتماعية قد يبدو عسيرا الا اذا كانت العلة هى بعينها التى دفعت الامير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره . هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الامراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الامراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والاوهام . فلو أن عباسا أو لو ان مصطفى كامل

عضد قاسما فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم • ولو ان عباسا أو لو ان مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد • والداعية السياسى تاجر يزن الامور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه • وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالايمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للاصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الامير محافظا بل رجعيا بل عدوا ظاهرا محاربا لكل فكرة حرة •

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح • ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة الى نغمة جديدة تحيى فيها الامل بحياة عزيزة • • وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية الى أن جاء مصطفى كامل • وبرغم وجود كثيرين ذوى مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير أنضج من تفكيره ، فلم يكن أحد منهم فى اقدامه ولم تكن حمية الشباب ملتهبة فى نفس التهابها فى نفسه ، وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفا من قبل ، هو الاسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنساوية • هذا الاسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها المجاميع من غير روية عادة الى الغاية التى يريدها الزعماء • « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ، « بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » ، « لو انتقل قلبى من الشمال الى اليمين •• الخ » بهذا الاسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيدا من الخديو عباس وأصدقائه بادىء الامر ، شاعرا بقوته بعد ذلك ، ممليا ارادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه ارادتهم ، مستأثرا بكل أمر وبكل رأى ، مطاعا من كل أنصاره وأتباعه الذين لم

يتسام واحد منهم ليتطلع الى مثل مكانته ، متقدما دائمـا الى الإمام يتبعه شباب الامة كلها ، رافعا بذلك علم النهضة مرددا نشيد الامل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الافئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه ، بل بوقوعه .

بازاء هذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وايمانا لم يكن لانجلترا الا أن تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر . ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به . فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين : اتهمها بالتعصب الاسلامى ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للاجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا ، وما أيسرها تصدق الاذن الاوربية كلمة التعصب الاسلامى وعداوة المصريين المسلمين للاجانب المسيحيين . لذلك أنفق مصطفى كامل كثيرا من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدتين فى مصر إحداهما فرنسية والاخرى انكليزية على أن انكلترا لم تقف منمجهوداتها عند هذا الحد ، بل واصلت المسعى السياسى حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسـا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هـذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل . بل انهار مجهوده منـذ سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا انكلترا تنفيذوعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الامم ومعلنة حقوق الانسان والمنادية بالحرية والاخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمارفتترك انكلترا تطلق يدها فى مصر مقابل ترك انكلترا اياها تطلق يدها فى مراكش !! يا لخيبة الامل ! وأين اذن محل الرجاء .

لكن « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » ! فلنجاهد ! • واستمر مصطفى كامل في جهاده ، وما يزال له في دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حول دولة الخلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته • فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هي الاخرى • ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الاراضى المصرية ، فوقفت انكلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هي المبينة في الفرمان الذى أصدره السلطان لاسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣ • وقد قبلت تركيا ذلك في تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ ؛ لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف في سنة ١٩٠٦ تفسيرا خاصا فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح الى السويس فالى العقبة • فوقفت انكلترا مرة أخرى • ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهي قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية اذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه ؛ ان قوات الامبراطورية على استعداد لتأييد مركز انكلترا فى مصر • • وقد استمرت المشادة في هذا الموضوع بين تركيا وانكلترا زمنا وقف أثناءه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته • على أن تركيا انتهت آخر الامر بالتسليم بمطالب انكلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل أمل فى معونة تركيا • وكذلك تداعى الركن الثاني من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائما بها •

ولقد كان من شأن تداعى هذه الاركان واحدا بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال • على أن حادثا جديدا وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والانسانية بمعناهما الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى • ذلك هو حادث دنشواى • فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الإنكليز من القاهرة قاصدين الاسكندرية فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها • واعترضهم الاهالى وحدث تصادم

انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابة بعض الضباط الانكليز اصابة فر من جرائها أحدهم هو الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متاثرا بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التي شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر في هذه القضية وحكمت على أربعة من الاهالي بالاعدام وثمانية بالجلد وآخرين بالاشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التي أرسلت الى قرية دنشواي قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الاهالي مباشرة ونصبت الى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق في المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد . وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص . ومن حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة في المشانق ، ومستشار الداخلية الانكليزي واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذي ابتدعته انكلترا في مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية وعن العدالة وعن كل المعاني التي جاهدت الانسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها في النفوس . وأي صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأي أسلوب وجداني كأسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التي فشلت بأزاة قوة انكلترا في أوربا وفي مصر لا بد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل في هذا أكبر نجاح . والحق انه لم يرتكب في التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواي ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومي في مصر ما أثارته هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : ان عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث لذلك ظل يكتب ويخطب في مصر وفي انكلترا بيانا لبشاعة

هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثرا فى حياة الامبراطورية ٠

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الاولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ، وقدر جماعة منهم أن لا بد من الاخذ بسياسة أخرى هى اعداد الامة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الانكليز ولا حبا فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حبا فى الاستقلال والحرية لذاتهما ٠٠ وكان لطفى بك السيد لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم اصدار جريدة « الجريدة » ٠ على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه ٠ لذلك هاجم « الجريدة » قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه ٠ ولعل هذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر اعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجا على عملهم بأنه سبقهم الى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته ٠

وخلف سير الدون جورست لورد كرومر كمعتمد لانكلترا فى مصر ، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدوبارة الى ذلك التاريخ ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعى لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الانكليز فتبقى السلطة فيها محصورة فى يد حفيد اسماعيل ٠ يصطفون من يصطفونه ما دام لهم فى ذلك مأرب خاص ٠ فاذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه ٠ ثم أن مصطفى رأى دعوة لطفى السيد الى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة الى جلاء انكلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا ٠ لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى وألقاها فى تياتروزيزينيا بالاسكندرية ما نصه : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها

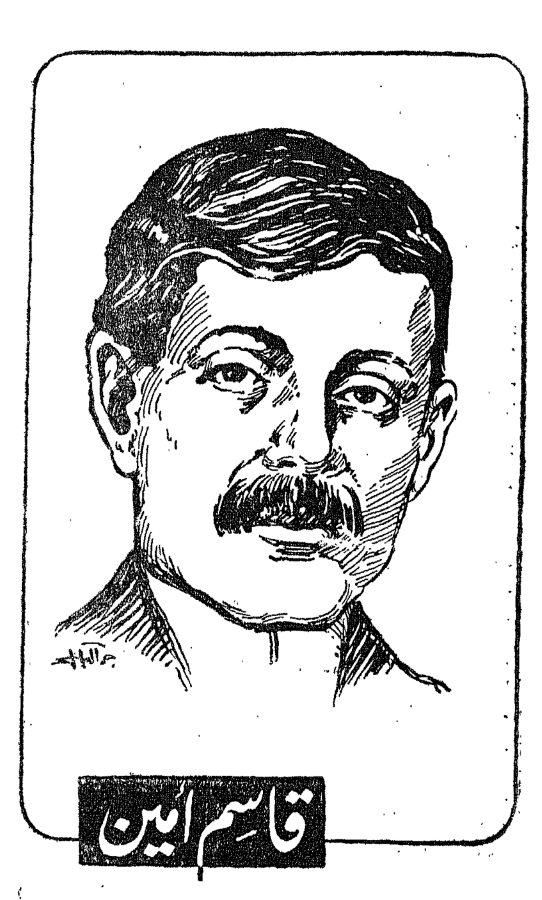
الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الارض كلها . وأننا اذا خطبنا الود لامة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » . ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الاولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقا لمعاهدة لندره فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك انما نص عليه تفاديا من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النظـام الذى كان موجودا .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الاحزاب المصرية الاخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الامر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨

***

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والامة من حوله يخفق قلبها فرقا على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها فلما كان يوم ١٠ فبراير أطبق الموت جفنى الزعيم الشـــاب وما يزال فى مقتبل عمره ، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥ ـ الى ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة ، لانها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بايمانها وسعيها . وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا . وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها الى أقصاها حزنا عليه وجزعا ألا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة ايمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل ما لم تعمله أجيـالا بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام . ومن حيث ذكراهم فأولئك لهم الخلد طى ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفورا .


قاسم امين

كلما ذكر اسم قاسم أمين ذكر معه تحرير المرأة في مصر ٠ فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هي صيحة قاسم في كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ٠ وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم في الموضوع ما تزال حواشيه باقية الى يومنا هذا ٠٠ مع ذلك ، فلو انه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الاجباري للبنين والبنات ، وهذه النهضة النسوية العظيمة في مختلف جوانب الحياة ، وهذه الحرية النسبية التي تتمتع بها المرأة ، وهذا الاصلاح في التشريع للاحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، اذن لأخذته الدهشة ، ثم لانقلبت دهشته اغتباطا أي اغتباط بهذه الآثار ، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر اليه في كتبه من محافظة ألزمه اياها روح عصره الجامد ٠ ثم نترك ميدان المرأة وتحريرها يسير في طريقه الطبيعي ، ونفكر في ميدان آخر من ميادين الاصلاح الاجتماعي الخطير الذي تحتاج مصر اليوم اليه أشد الحاجة ٠ ونعل الأدب القومي وخلقه وتوطيده والارتفاع به الى سموات الانتاج الذاتي الخصيب يكون بعض الميادين التي يصرف اليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعي أسس هذا الادب القومي في كتبه الثلاثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد ٠

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب ، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف انطمأنينة ولا تستريح الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال ٠ بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا والهاما أكثر مما تؤدي اليها المباحث الجافة منطقا وجدلا ٠ وكانت هذه المناظر تذكي شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع ٠ وذلك لا يؤتاه الا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معاني هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقي بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الاديب يجد

(اقرأ عن قاسم أمين أيضا في « أوقات الفراغ » من ص ٩٦ ــ ١٤٨)

في وصف ما في الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره اليه • وحياة قاسم كانت كلها متجهة الى هذه الدعوة • وكانت متجهة اليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الايمان بها ايمانا صادقا •

ولد قاسم مصريا يجرى في عروقه دم كردى ، أورثه اياه جده الامير الكردى ، وولد في أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الاكثار ولم تجن عليها آثار الحاجة • وتربى منذ نشأته تربية أمثاله ، ثم سافر الى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد في سنة ١٨٨٥ • وليس في ظروف صباه شيء غير عادي الا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه وليس في حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التي تجتذب لأصحابها أنظار الجماهير ، بل ظل منذ أتم دراسته الى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو في ريعان قوته قاضيا ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف • لكنه كان مع حيائه الجم عيوفا يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته ، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفا • ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى • وتلك ظاهرة كثيرا ما تلقاها في ذوى الحياء فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم في هذا الاحترام الى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية الى حد يضايقهم ، تراهم اذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون في سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة • وذلك سر نجاحهم دائما • على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى الا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعا يحل منهم مكان الايمان • وهذا ما عبر عنه قاسم في مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال : « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى اذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتنبهنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » •

. وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا الى خاتمة حياته قاضيا ممتازا . فهو لم يقض يوما ليناال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم : « أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل » . ولم يتقيد في قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لا محيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون اذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالا للرأفة فى قضائه نافرا أشد النفور من حكم الاعدام . فقد كان يرى « أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح الذنب » وأن « معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر » وأن « التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن مايعالج به السوء ويفيد فى اصلاح فاعله » و « أن الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان » . فاذا كانت الجماعة لم توفق بعد لادراك هذه الافكار وكانت قوانينها التى وكل اليه تطبيقها كقاض ما تزال تجرى على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة ، فلا أقل من أن يتحاشى الاعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لا سبيل لعلاجها اذا ظهر خطأ القاضى أو ثابت الجماعة الى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للاصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

- وكذلك كان رأيه فى قضائه المدنى : لم يكن يتقيد بالاجراءات اذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحدا من هذه الاجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلا لمصالحة المتخاصمين ولاحلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو فى هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديدا فى العدالة وفى التشريع والذين خطوا بنصوص القوانين الى معان تتفق مع الرقى الانسانى الذى يصمدون اليه ويودون لو يتحقق . وأنت اذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل الى رجال القضاء الذين يشتغلون بالمهنة انها الى الادب والخيال أقرب منها الى النصوص المقدسة ، والتى كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعى فى سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال » .

وهذه الآراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره الى الانسان وفى تحليله نفسيته ، وهذه الاعصاب الثائرة التى تهتز لكل ما فى الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به ، وتربية قاسم فى وسط فرنسا الحر الذى كان متأثرا بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذى دفعه ليعلن رأيه فى تحرير المرأة مع علمه بما يثيره اعلان هذا الرأى عليه من حملات شعواء • فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذى درسوا فى أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط الذى عادوا اليه • بل لعل هذه الحال على حد تعبير الاستاذ لطفى بك السيد « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار أطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة • وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسى الى ملكة ينم عليها سكونه واطراقه ويفسرها كثير من كلماته الى حد يجعل المرء يراه متطيرا أكثر منه متفائلا » • وكثيرون ممن تعتريهم هذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدأوا اذ يرون أنفسهم عاجزين عن أن يهزوا الوسط الذى هم فيه أو يبدعوا فيه جديدا • ولعل قاسما حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض وبمنصبه العظيم • ولعله كان يصف نفسه أيضا حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شىء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان ، ذلك لانه ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شىء فى اصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها • لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الافكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر ان حياته ليست طويلة فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده (١) » وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة الى منصبه وجاهه بعدما رأى أن لا مناص من ابراز دعوته من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » ••

---

(١) تأبين الشيخ محمد عبده

وفي ظننا ان الدعوة الى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وانما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها • ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لانشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها الى أن وافته منيته بعد ما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة • وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقا يتناول ثورة فىاللغة والادب كالثورة التي أحدثها كتاباه فى تعليم المرأة وفى رفع الحجاب •

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه فى تحرير المرأة • فقد تناول الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة • وكل ما يمكن لقارىء كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم فى شأن برنامجه ما اضطر اليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التى كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الاحيان فى تقدمها وسبقها ••

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم • واذا كان شيء مما دعا اليه كتنظيم تعدد الازواج وكجعل الطلاق باذن القاضى ما يزال موضع النظر ، فان الرجاء منعقد بتمامه عما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه الا الجامدون والذين فى قلوبهم مرض • على أن كتابى تحرير المرأة والمرأة الجديدة ليسا مقصورين على الدعوة الى تعليم المرأة وازالة الحجاب ، بل فيهما مذهب جديد فى التفكير والكتابة لم يكن معروفا من قبل قاسم ولم يسبقه اليه أحد ، فيهما شيء من « الرومانتسم »الغربى ومن تحليل الطبيعة الانسانية فى أرق عواطفها وأدق وجداناتها • فقد كان قاسم ينظر الى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول « ان التعارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات فى هذه الدنيا • واذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة

بعينها » (١) وكان يراه غذاء روحيا لاغنى لنفس عنه في جميع أدوار حياته • وعنده أن « كل عشق شريف • فان كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما • وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقتيا حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما » • ورجل ذلك نظره للحياة أدنى الى تغليب حكم العاطفة والى اعتبارها الهادى والمرشد الاول فى الحياة • وانك اذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادرا عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التي التجأ اليها لتبرير مذهبه بازاء الشريعة الاسلامية ، اذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة ، عاطفة المحبة والرحمة والتســـامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه • وهل الحياة الا محبة ورحمة وتســـامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحيــاة وبالحياة كلها استمتاعا كاملا • وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الانسانية اليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم • وهو يزيده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس • وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس الا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه • ترى فى هذه الكلمات مبلغ ايمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل • وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع • قال : « وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم • فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا منتظركم هنا • وقال الثانى : أتبعكما لانى أحب المشى واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح « هذا ألطف ما فى هذه الدار » ، ووصلنا الى تمثال آلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا ماذا تساوى هذه الصورة اذا بيعت ؟ فقال انها تساوى ثروة أغنى

(١) تحرير المرأة

رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها » .

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . واذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محببا اليه فان مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعا هو المرأة ، هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجل هذا الجمال لانها تحب الزهر وعطره والنسيم وارجه القمرى وشدوه ولانها تحب كل جميل . وقد لا ترى ذلك واضحا صريحا فى كتب قاسم ، ولكنك تراه واضحا فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ما ينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : « كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » وقوله : « الحب احساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل الى الشمس والغريق الى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا .. نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا وتجعله يتخيل انه ماش فى طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر فى المرتفعات العالية ، فوق قريب السماء » وهو ، وذلك ايمانه الصحيح ، قد رأى ان المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعا .

لكن هذا الوحى والالهام لا يكون الا اذا استعد الرجال لتلقيه .. واذا كان لدعوة قاسم أن تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتهما من النساء اللواتى أوحين الى النوابغ ما غير وجه التاريخ ، فلابد من اعداد الرجال لتلقى هذا الالهام السامى ولابرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكنا والتعليم العالى ، كما كان يومئذ ، مقصور

على أن يعد موظفين للحكومة وللاعمال الحرة مما لا يرون العلم الا وسيلة للكسب « ويعملون على مبدأ ـ اكسب كثيرا واتعب قليلا ـ وليس فيهم العامل المحب لعمله أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته » ..
أمثال هؤلاء لا يوحى اليهم جمال العالم فكرة جديدة ولايرتجون من الحياة الا اعتزازا بمنصب أو بمال طائل يحصلونه ..
وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى فى سبيل الكمال ..
فأما الفئة التى : « تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، الفئة التى يكون مبدؤها التعلم للتعلم » والتى تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التى ترى فى المرأة الجميلة المهذبة معوانا على النهوض بالجماعة ـ هذه الفئة لا تكون الا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى ..
وهذه الفكرة هى الاساس الذى دعا قاسما للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصرية التى ظلت لجنتها برئاسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيرا للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة الى أن عاجلته المنية ..

وقد ظل قاسم عاملا مع أصحابه مجدا يستنهض الهمم ويجمع الاموال ويهىء كل أسباب نجاح الجامعة .. وقد بين فكرته عنها فى خطاب ألقاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانا للجامعة قال فيه : « ان الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها .. عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوايفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل ..

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم ..
نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى فى البلاد الاخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم ، وعالما

يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه ٠٠ أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها ٠٠ فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون ٠٠

- « ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى ازالته ٠٠ وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الاشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الاقارب والاصحاب ٠٠

« ان الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لاحساسه ، وان أكثر الناس استعدادا للكمال هم أصحاب الاحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ٠٠ أولئك هم السعداء الاشقياء الذين يتمتعون ويتألمون ٠٠ أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الاول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة ٠٠ من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو عالما حكيما أو وليا طاهرا أو نبيا كريما ٠٠

« ولى أمل عظيم أن أنشاء الجامعة المصرية يكون سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال » ٠٠

كان أول أمل لقاسم من انشاء الجامعة اذن هو الامل العلمى البحت ٠٠ هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقا اليها وحرصا على كشف ما يحيط بهذا العالم من الاسرار ٠٠ وهذه الحقيقة لا يصل اليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعى لها والدأب فى سبيلها ٠٠ وانما تصل اليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالاستاذ اتصال بحث ٠٠ اتصال تعليم واتصال تضامن فى زيادة ثروة الانسانية العلمية ٠٠ هذه الثروة النورانية التى تضىء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتى تهدى الانسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود •

ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول الى تركيز أدب قومى صالح يجدد الادب العربى

الذي كان متداولا إلى عصره ·· وقد كانت لقاسم في تجديد اللغة والادب آراء لا تقل تقدما عن آرائه فى مسألة المرأة وتحريرها ·· وكان يرى « أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام بينا أخذت اللغة الاوربية تتحول وترتقي كلما تقدم أهلها فى الاداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة فى التمدن الحديث » ·· وفي كلماته كثير عما كان يراه من أوجه النقص فى اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت بصره من غير لحن ·· أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية ·· لى رأى فى الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ·· بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الافرنجية واللغة التركية أيضا ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ ·· بدون أن يترتب على ذلك اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هى » ··

ولم يكن جذعه على الادب بأقل من نفوره من جمود اللغة - فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الاطفال القرآن ·· وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « اذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الاول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » ·· وكم استهجن الاساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا الى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفيا بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتاب العرب أيام مجدهم ·· وانك تجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الادب الجديد الذى يدعو هو اليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا العصر الحاضر ·· ولئن كنا ما نزال نرجو للإساليب الجديدة ثروة

وقوة فان فضلا كبيرا يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا اليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهـــد فى انشائهاوالتىقامت بعدموتهقوة تقربهامنالمثل الاعلى الذىيرجوه
واختطف الموت فجأة قاسما وما يزال فى ربيع قوته ٠٠ مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا ٠٠ مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق اليهما كلال ٠٠ فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة ٠٠ ولم يكن هذا الرأى العام مقصورا على السواد ولا على الجامدين ٠٠ بل ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها ٠٠ بل ممن كانوا معتنقعين بصواب رأى قاسم ٠٠ وبلغ الامر أن حرم قصر عابدين عليه ٠٠ ولم يثبطه شىء من هذا ولم يبال بذم الناس بل وجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لاعصابه منشطا لقواه مغريا اياه بالاستمرار والثبات ٠٠ ورد عـــلى خصومه بكتاب « المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى انشاء الجامعة ٠٠ وكان فى ابان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير محبا للحياة وجمالها غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك ينايلهفى رفق ما كان بعيدا عن مصر ، فاذا عاد اليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذى كانوا « يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها » ٠٠
مات فجأة فى ليل ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعا ، أصدقائه وخصومه ، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر ٠٠ وكانت جنازته مظهرا صامتا لاجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله ٠٠ وغادر هذا العالم تاركا وراءه ذكرا باقيا هو ذكر الصدق والاخلاص لبلاده لم يبتغ عليها فى حياته أجرا من جاه أو نشب ، فكان أجره عليهما الخلود بعد موته فى ضمير الاجيال المتعاقبة ٠ ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى معانيه ، وبعث الى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الامم المتحضرة ٠٠
وفى يقيننا أن مجهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ، وأن الصحائف المعدودة التى كتبها ستظل أبدا موضع اجلال العصور واحترامها ٠٠



عبد الخالق ثروت

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ في بيت جاه ونعمة كان والده المغفور له اسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق أفندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير ٠٠ وكانت أمه من بيت تركى هى الاخرى ٠٠ وقد أرسل به أبوه الى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى اذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى اجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ ٠٠

وكان ثروت الطالب ، على ما ذكر الاستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، « شابا حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعا فى غير كبر ، سهل الاخلاق دون فناء فى الاخيار ٠٠ وكان فى ألمه وفرحه معتدلا محتفظا فى كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودودا من غير الحاح ، ومتحفظا من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته ٠٠ وكان فى جاذبيته وحلاوة حديثه متفوقا كما كان فى ذكائه واجتهاده ٠٠ نعم فقد كان ذكيا حاد الذكاء مواتى البديهة كثير الاشتغال فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية ٠٠ وأكثر ميله فى هذا الباب الى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الاخيرة — من حياته — نوعا من الشغف » وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص ٠٠ فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفدت طبعاتها ، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياما متتالية حتى يقع على طلبته ٠٠ فاذا وقع عليها أمعن فيها بحثا وتقليبا حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره ٠٠

ولما نال اجازة الحقوق التحق موظفا بوزارة الحقانية سكرتيرا للمستشار القضائى بها ٠٠ وكان المستشار القضائى يومئذ السير جون سكون من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة ٠٠ وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل

ثقته وحتى وضع فى يده كل نفوذه ٠٠ ونفوذ المستشـــار الانكليزى يومئذ أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف انكليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر ٠٠ لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث استطاع أن يقيم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الامر والنهى فيها وما يزال شابا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه ٠٠ وعاونت هذه الحرية فى السلطة ما وهب من مقـدرة وذكاء ، فلم يلبث الا قليلا حتى تقدم فى وظائف القضائيين وحتى عين مستشارا بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديرا لاسيوط ثم عاد الى الحقانية نائبا عاما واختير وزيرا لها سنة ١٩١٤ ٠٠

على أنه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته عـلى المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها الى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلا عليا للموظف الكفء القدير ٠٠ بل لقد أسلس من نشاطه الى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر اليها فى كثير من الاحيان بشىء من الريبة والحذر ٠٠ انتخب عضوا فى ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وعضوا فى ادارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام ٠٠ وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وارادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه مازاد الهيئتين قوة واقتدارا على القيام بالاعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله ٠٠

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفا فى الدوائر الخاصة بالقضاء وعند المسئولين عن شؤون مصر العامة ، حتى عين فى منصب النائب العام ٠٠ وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه الى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام هو لبلاده ٠٠ فلما كان صاحب الدعوة العمومية أتاح له حادث خطير أن اتصـــل بالجمهور اتصالا مباشرا ، فقد اعتدى ابراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية

وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة فى الدعوى هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص ·· وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تحـــدد سياسته ·· فالعبارة التى ننقلها من تلك المرافعة تلخص الى حد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسى بقيـــة حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده ·· نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات فى اعلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها ·· كذلك نرى أن من مرقيات الامم الدارجة فى رقيها النظر فى أعماق القابضين على أزمـة الامور فيها ونقدها ·· ولكنا لا نسلم بحال من الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل جمع الى العلم الغـــزير والحكمة البالغة الاتزان فى القول والفعل حتى يقدر الاعمال قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح ، فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة الخير شرا » ··

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياســـية المستقبلة عن جانبين : الاول تقديره السعى لتقدم البـــلاد واستقلالها على أنه فرض من فروض العين على كل مصرى · والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالثورة ولا بالفوضى ولا بالاعتداء · ولئن كان هـذا التعبير ـ بالطرق المشروعة ـ هو الذى اتخذته مصر من بعد شعارا لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الاوفى منها ، فان هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة ·· فالشباب ، وان قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده أو هو يصفق وان فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق · لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وان لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الاشياء بنتائجها من المسئولين ، ولذلك

كان ثروت بمرافعته موضع اعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع اعجابهم بمقدرته كالمسئولين سواء بسواء

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبه أى عصب من أعصاب ثروت . ذلك بأن جانبا ثالثا من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيدته لا برأى الجمهور وعقيدته فيه . فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابىء برأى الناس فى اقدامه . وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها الا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم الى البر والرحمة .

وحرك الحكم بالاعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى ، وكان بطرس رئيسا لمحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان ، ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى مرافعات حارة تفيض تقديرا لوطنيته التى دفعته الى جريمة ارتكبها مدفوعا بعوامل لا قبل له بمقاومتها . والحق أن هذا الحادث الذى أعقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل ، الذى جاهد حتى استصدر العفو ، بعد صدوره بشهر واحد . نقول ان هذا الحادث حرك النفوس فى مصر الى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايدا بأن الاحتلال الإنكليزى القابض على أزمة الامور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيرا . وكان من أثر هذا الشعور ، الذى ازداد التهابا حين أحس بتخلى أوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنكلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام انكلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦ ، أن بدأت فى البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التى تقوم لتستر الحكومة الفعلية ، حكومة المستشارين الانكليز ، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها

حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحكومة الوطنية حين استصدرت ، بموافقة انكلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سير الدون جورست بعد وفاته ، قانونا جديدا لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعد ما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع طول مناقشة الجمعية اياها . فاستقالت وان لم يكن ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزير للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من ارجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجا ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجا . فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا . وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائبا عن مصر مقيما بالآستانة متهما فى نظر الانكليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على انكلترا وعلى الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديوى بالاخلاص والولاء . وانكلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها الى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعا . وهيهات اذا ضمت مصر الى أملاك انكلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب اذا انتهت هذه الحرب بانتصار انكلترا وحلفائها ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانية ممتازة اذا انتهت الحرب بانكسار انكلترا وانتصار الألمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟ ...

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجا أن الشعور العام فى

مصر كان ميالا الى جانب ألمانيا آملا في فوزها طامعا في أن تحرر من نير انكلترا • وكأنما تجددت يومئذ في نفس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلى لهم جنود انكلترا عن أرضهم آمال في الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هذه الغاية • وكان هؤلاء المصريون الموالون ألمانيا بعواطفهم يدورون في الاندية والاماكن العامة وفي قطر السكة الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشرا عليها بمواقع القتال وبما كسب الالمان واندحر الحلفاء • ودعاية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة اذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها • لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل الا الدفع بمصر الى أحضان انكلترا والخروج بذلك على ما كان معروفا يومئذ من ميول تركيا ميولا انتهت بخوضها غمار الحرب الى جانب ألمانيا • فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل الى خير الوعود من انكلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب لمصلحة الحلفاء ، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب ، نافضة يدها بعد ذلك من شؤون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت انكلترا الاحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها ، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به •

وأعلنت تركيا الحرب منضمة الى ألمانيا ، فألفت انكلترا الفرصة لتغيير موقف مصر السياسى • وقد دار بخاطر أولى الامر في لندن — على ما ذكر لورد جراى وزير الخارجية الانكليزية في ذلك الحين — أن يعلنوا ضم مصر الى أملاك التاج • لكن اعتراضات قامت في هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب انكلترا واياهم كتفا لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق واياهم على شيء في هذا الصدد • ثم ان اعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور في مصر الى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة • على ذلك فكرت حكومة لندن في اعلان الحماية على مصر ، وانتهت ، بعد شيء من التردد ، الى اختيار السلطان حسين كامل سلطانا في القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت انكلترا أنه انضم انضماما ظاهرا الى أعدائها ، فلا يمكن أن يعتلي عرشا تحت حمايتها •

ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت الى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء فى مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية ، آملين متى انتهت الحرب أن تجد انكلترا فى تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول الى خير نظام سياسى لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصيرها فى ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه • وظلت حكومة رشدى باشا ، وفيها ثروت باشا وزير للحقانية ، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء فى أن لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها •

ولما كانت الشروط الاربعة عشر التى وضعها الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبرا اياها أسسا للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها ، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الامة ـ نذكر من بينهم على باشا شعراوى ، ولطفى بك السيد ، ومحمد باشا محمود ، وعبد العزيز باشا فهمى ـ هذه الفرصة ففكروا فى تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها فى تقرير مصيرها • وأفضى هؤلاء بفكرتهم الى حكومة رشدى باشا فوجدوا منها ارتياحا لها • ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيسا لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطنى • وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيل من الامة لها بالسعى لاستقلال مصر أينما وجدت اليه سبيلا • ووزعت هذه التوكيلات فى طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا • وكان من رأى السير رنجالد ونجت مندوب انكلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر الى انكلترا أو الى حيث شاء من ممالك أوربا وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين • ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ، على الاغلب ، وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض

انكلترا الاذن للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر ٠

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد الى انكلترا أو الى مؤتمر السلام ٠ ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل الحكومة الانكليزية عن رأيها ٠ هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩، ولقد خيل الى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف باقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل اليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والاربعين من عمره ٠ لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركاً بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى ٠ ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد اعلان انكلترا حمايتها على مصر ٠ فاذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لانكلترا ، وكانت مصر ، والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملا من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبى قائد جيوش الحلفاء فى الشرق ، فان من خطل الرأى وسوء التدبير الذى لا يليق بسياسى حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياسة الوزارة بديلا لما كان يرى حقا لأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع مكانتها ويعادل بعض الجهود التى بذلتها أثناء الحرب الكبرى ٠ واذا كانت بعض دول أوربا التى خاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، واذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذى يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم ٠

ورفض أن يشكل الوزارة فى هذا الظرف الدقيق ، مقدرا أن سيحسب عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمراجع العليا فى مصر ، بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ اليه وأصر على الوقوف الى جانب أمته اضرارا دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول

باشا ، كي يسعى بكامل هيئته الى دار ثروت باشا مقدما اليه التهنئة على ابائه الوطني وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد في حركته القومية • وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا في النجاح • وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة • على أن هذا الانذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا في اصراره على رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية •

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسي في السعي لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التي أشار اليها في مرافعته في قضية قاتل بطرس باشا غالي • ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى الى جانبها كل ما يطمع فيه غيره • على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه الى أن يتبع في سياسته خطة غير التي يتبعها كثيرون من الساسة غيره • فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعينا في تحقيقها بالقوة أو بالوقيعة أو بالمساومة • بل كان يحدد في نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل • وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائما في بلوغ ما يريده • وكان يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئووليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيرا لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته • بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر في وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين ، رشدى باشا وعدلي باشا واسماعيل صدقي باشا ، في اقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى في أمر القضية المصرية • وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها الى رجال الوفد بباريس كي يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى اذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمرا • فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر في صيف سنة ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة

البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وانكلترا وطلبت الى سلطان مصر ايفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشا وزارته الاولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها ٠

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل ابريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت الى اختلافه واياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة واعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ ابريل بحى شبرا ٠ ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر السلطان ليقوم بالمفاوضة ، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين ٠ وقام ثروت باشا فى مصر رئيسا للوزارة بالنيابة ٠ وكوزير للداخلية مسئول عن حفظ الامن والنظام اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالا بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان ترددا ولا هوادة ، وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل اقناع الانكليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول الى حلها حلا يقنعهما ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن اليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته ٠ واستقال عدلى باشا على أثر وصوله ٠ ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقا بمذكرة مهينة لمصر أشد الاهانة ٠

تحرج الموقف السياسى بين مصر وانكلترا على أثر هذه الاستقالة ٠ ثم زادة حرجا أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر ٠ هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع انكلترا وتدعو كل مصرى أن لا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الامر فى مصر ، حتى تظل انكلترا

وأحكامها العرفية مسئولة مباشرة عن كل ما يقع فيها ·

في هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره · ان المشروع الذى أعلنته انكلترا ولم تقبله مصر يقضي باعتراف انكلترا باستقلال مصر استقلالا مقيدا فيمسائل معينة · وهذه القيود هي التى لا ترضاها مصر · فاذا أرجأنا النظر في هذه القيود الى ظرف مقبـــل أكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت انكلترا من جانبها التخلي لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب انكلترا تدل بها على حسن نيتها بازاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى اليه كتابهـــا المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئا لانها انما تتنازل عما كانت معتزمة من قبل التنازل عنه · على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد انكلترا للوصول الى هذه الغاية لم يبدأها بطلب الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الامر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصال · ولم يكن بد أمام العقل من قبول انكلترا هذه الطلبات · وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وانكلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه الى نقطة تبين معها لممثل انكلترا نفسه أن بقاء الحماية الانكليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لانكلترا نفســـها ·· وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية ·· وقد بلغ من اقتناع اللورد اللنبى معتمد انكلترا واقتناع المستشارين الانجليز في الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعا بالاستقالة اذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم ·· وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا اليها ·· ولم يكن الا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الانكليزية أيضا ·

وعاد لورد اللنبى في يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فأعلن في مصر تصريحا من جانب انكلترا بأنهـــا تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنهى لذلك حمايتهـــا عليها محتفظـــة

لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الامبراطورية ، وحماية الاجانب والاقليات ، ومسألة السودان ٠٠ وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة الملك فشكل وزارته الاولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ ٠٠

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل انكلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سببا لان تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته ٠٠ وقد دبر هذا الاغتيال قبل اعلان التصريح بيومين ٠٠ على أن ادارة الامن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كوبرى الاعمى ، حتى اذا مر فى أوتموبيله ذاهبا الى نادى محمد على فتكوا به ٠٠ وقد طلب ذلك اليوم الى مقابلة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد اتمام جريمتها ٠٠ فدعا اليه صديقه وزميله فى محادثات الانكليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر اسماعيل صدقى باشا وطلب اليه أن ينوب عنه فى مقابلة الملك على أن يركب سيارة بالاجرة ٠٠ وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين ٠٠ ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟٠٠

واعلان انكلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالت انكلترا ــ هذا الاعلان رفع مقامه فجعله سياسيا فذا فى نظر العالم بأسره ، وجعل أبناء أمته يتطلعون اليه معجبين به وبمهارته ٠٠ على انهم انقسموا مرة أخرى ، لافى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالاحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بازاء التصريح بالاستقلال وبازاء الرجل الذى فاز به ٠ فأما الطوائف الحكيمة التى تقدر الاشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جديدة فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته ٠٠ ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح أذى ، عاملة فى نفس الوقت على مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاص من قيمته ٠٠ وقد كان من مظاهر هذا

الموقف أن أمسك هؤلاء عن ابداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الانكليزى أنه يريد بحثه في جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل أن لاتنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب اعلانها اياه ٠٠ فلما فازت الحكومة بالثقة وأعلن ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون الى أنه أصبح حقا لمصر لا ينازعها فيه أحد بدأوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا ٠٠ على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفـــذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بانشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وباقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاما دستوريا على أحدث المبادىء العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها واظهار الحكومة المصرية الاهلية بمظهر الاحترام الواجب لها ٠

وليوطد فى النفوس الايمان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد الملك ، الى حفلة كبيرة بفندق الكونتننتال حيث ألقى خطابا بين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال ٠ وقد يبدو عجيبا أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل ٠٠ فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا الا أن نقنع انكلترا أن ليس بها من حاجة الى التمســك بالضمانات التى تريد الاحتفـاظ بهـا فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى ٠٠ وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخـــذنا بأسباب النظام ٠٠ فان حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة فى الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم الى تركها لعهدتنا ٠٠ فاذا قضينا على عوامل

الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائنا فاننا نثلم هذا السلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا .. ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو اثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه » ..

ثم جاء فيه أيضا :

« اننى لا أكره المعارضة ، بل اذا انعدمت هذه المعارضة فاننى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول الى المعارضة الشريفة التى تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب .. ننى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل لذاته مجردا عن كل اعتبار شخصى » ..

وهذه الخطة التى رسمها ثروت فى هذا الخطاب هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستورولوفود ذهبت اليه فى شؤون سياسية مختلفة . ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملا بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح الى ميادين أخرى . فبينا هو يعمل جادا فى تطبيق مزاياالاستقلال الذى حصلت عليه مصر مقيدا بالتحفظات التى أشرنا اليهـا ، وقعت على جماعة من البريطانيين ، ضباطا وجنودا ومدنيين ، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب . على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجا غاية الحرج بعد زمن وجيز من بدء لجنة الدستور عملها . فقد عمدت هذه اللجنة إلى وضع مبادىء تتفق مع المبادىء العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها ، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها . وفى رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة الشرقية وخططها . لذلك ألفى ثروت باشا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . وبرغم المحاولات الكثيرة التى بذلها لتهدئة العواصف الكمينة فى ثورتها حوله ، فانه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعتمشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب . ورفعت

اللجنة مشروعها اليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر أثناءها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ، وكان ذلك فى ١٨أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون فى هذا الوقت حزب الاحرار الدستوريين ، انتظر من معونتهم ما يكفل اقتداره على السير بسياسته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضى أسبوعان على تاليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره ـ دار جريدة « السياسة » ـ فأصابوا حسن باشا عبد الرازق واسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس ادارته . وأبدت الصحف المناوأة لهذا الحزب أن الرجلين ذهباضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور الى الملك أنها خطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوها فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظرا ظرفا خيرا من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود الى الميدان فيعمل لاتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال . على انه فى اعتكافه لم يتوار يوما عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور . فلما صدر فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا ابراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته . وسياسته ، كما رأيت ، تقوم على الاخلاص الصحيح والعزم الوطيد على اتمام اتفاق بين انكلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح . وعسير الوصول الى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ ، فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى امكان التفاهم معه اجتنابا لكل انقسام

مستقبل . لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعه أن ثروت هو الذى نصح بنفيه . ثم ان سعدا كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقبسها . بل لقد ذهب فى الطعن عليه الى اتهامه فى اخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم الى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه ، فبعث الى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم واياه فى أسباب الخلاف بينهما الى الامراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو ، معتمدا على هذه الوحدة ، الى استكمال استقلال بلاده باتمام الاتفاق بين مصر وانكلترا . لكن مسعاه هذه المرة لم ينجح اذ رفض سعد باشا التحكيم . وبقى ثروت بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الاسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التى كانت أبدا فى حاجة الى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية الى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الاغلبية الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم الى حزبه على حياة السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت انكلترا حكومته انذارا قاسيا اضطرت بعده الى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة ، فاستعان بالاحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك . فحل المجلس الجديد أيضا وأجلت الانتخابات الى أجل غير مسمى . على أن الحل الاول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزبا جديدا كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما . وخيل لأعضاء هذا الحزب يوما أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الاحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامنا واياه ،

وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معا لعود الحياة النيابية ٠ وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا ٠ وجرت الانتخابات وألف عدلي باشا يكن الوزارة الائتلافية الاولى وجلس سعد باشا في رياسة مجلس النواب ٠ وفى أوائل ابريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلي باشا : فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقى سعد باشا فى منصبه رئيسا للنواب ٠ وكانت انكلترا يومئذ قد أرادت ، متأثرة بآراء مندوبها السامى اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، فخلقت ماسمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها الى الاسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد ٠ فاستطاع ثروت باشا ، بمهارته وكياسته ، أن يقضى على هذه الازمة من غير أن تصل انكلترا من مطالبها الى أكثر من منح أحد الموظفين الانكليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية ٠

حدث بعد ذلك أن سافر الملك فؤاد الى أوربا مدعوا الى زيارات رسمية بانكلترا وايطاليا وفرنسا وبلجيكا ٠ وبعد شيء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا فى رحلته ٠ فانتهز ثروت فرصة وجوده بانكلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستن تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث اليه فيما اذا كان مستطاعا الوصول الى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى ٠ وقد انتهت هذه المحادثات الى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح الى الاتفاق النهائى ٠ وربما كان ممكنا تعديله بما يمهد لقبوله ، لو أن سعد باشا زغلول بقى حيا الى حين انتهاء ثروت من محادثاته ٠ لكنه توفى أثناءها ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ولم يخلفه من حنكته التجاريب السياسية ما حنكت هذا الزعيم ٠ وطلب الى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل اليه على البلاد ، فأبى ، لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع ، ولانه من ناحية أخرى خشى اذا حل المجلس أن لا يعود ٠ واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتابا أخضر عن مفاوضاته ٠ ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله

ثروت أثناء قيامه بالمفاوضات منفردا ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى حياة سياسى مصرى نظير · ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبرلن لاحد أصدقائه اذ قال : « أتاح لى اتصالى فى جمعية الامم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعا · وما أحسب واحدا منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان » · وفى الكتاب الاخضر المذكور ، الى جانب هذا كله ، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى الى ربط الاتفاق بين مصر وانكلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسيا عالميا لا سياسيا قوميا وكفى · فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الامور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندره للوصول الى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل · وكان أمامه اذ ذاك أن يعلن ذلك الى قومه فى عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطا بهالة من الجلال والاعجاب · لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتأييده · لذلك لجأ الى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الانكليزى ، حتى اذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولا أمام العالم كله وكان مخالفا فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى اتبعتها الدول الاوربية فيما بينها لتأييد السلام · فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده ، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح ، ما يشهد به نصه اذ قال :

« عزيزى صاحب السعادة

« من أطيب الاشياء الى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال · وان أنس لا أنس نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين ·

« ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن

يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى اللحظة الاخيرة ، مجالا للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن .

« ولا أزال أرجو ، اذ أنادى منكم داعى الحكمة والتجىء الى صادق شعوركم وصحيح انصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا الى أكليل « لوكارنو » اكليل الاتفاق بين انكلترا ومصر » .

ولم تضعف استقالته من الوزارة من ايمانه بامكان الاتفاق بين مصر وانكلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها . لكن المجهود العظيم الذى أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية على انكار الجميل ، التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالاكباب على العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفيا فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب الى سان مورتز ثم عاد منها الى باريس فى ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله اليها بخمسة أيام .

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العالم كلها تعزيها فيه ، وتناولت الصحافة فى مختلف الامم أعماله فشادت بها ورفعتها الى المكان الجديرة به .. بكته مصر مقدرة جميل صنيعه ، وعظيم نزاهته ، وعلو همته ، آسفة على ما فرط منها أيام حياته فى حقه . مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علما فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير .

***


بيتهوفن

يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، احتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن ، اجلالا لتلك الالحان القدسية التى أورثها اياه هذا النابغة الشقى ، والتى لا تزال برغم ما أحدث رجال الموسيقى آيات خالدة فى عالم النغم ٠٠ فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الاخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج فى جو الوجود فتزيده بالحياة نعمة ، وتشدو فى أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أوعزهم اللحن العذب ليرفع من هممهم وليقوى عزائمهم ٠٠ وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترنا بكل لحن من هذه الالحان ، بل بكل نغمة من نغماتها ٠٠ وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس الا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة ٠٠

يذكر العالم كله بتهوفن فيذكر ذلك الالماني المولد ، الفلمنكى الاصل ، المتقارب أجزاء الجسم فى قصر يكاد يجعله قزما ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتجهم للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به الى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الالم سبيل المسرة ، المفنى نفسه فى سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته ٠٠ يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد فى غير العمل سبيلا للسعادة ، أو بالاحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توفر على عمله فى الموسيقى توفرا جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذى لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمن بشىء ايمانه بها أن كانت أعصابه أوتارا تهتز بالنغم لكل مافى الحياة ٠٠

فقد كان كل مافى الحياة عنده نغما ، كان الجمال نغما ، والعواطف نغما والافكار نغما والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل ما فى الطبيعة وما فى الحياة أنغاما تشدو بها أوتار هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها ٠٠

وعجيب ان كانت حياة واضع هذه الانغام السماوية نشازا كلها ٠٠ فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيرة ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهناء ما يذوق أمثاله ٠٠ بل كان ، وهو على حد قوله « باكوس الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب

ويجلى على الناس أقدس ما فى الروح من جلال ، معذبا فى نشأته معذبا جل حياته ، معذبا كذلك فى موته ٠٠ ولعل ما تمتعت به ذكراه بعدما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح اليه يوما طوال عيشه ٠٠

***

ولد لدفج بتهوفن بمدينة بون على مقربة من كولونيا فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ ٠٠ وكان أبوه مغنيا سكيرا ، وكانت أمه خادما وابنه طباخ وأرمل فراش ٠٠ وهذه بداية فى الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة ٠٠ بل هى صراع للوجود قاس قتال ٠٠ ولم يمهله أبوه الى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ، فأراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة ، وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره اليه فنا خلق له ٠٠ لكن كسب الاب كان تافها ، فكان لا بد للطفل أن يجنى من عمله عيشه ٠٠ فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفا فى أركسترا أحد المسارح ٠٠ وفقد أمه وهو فى السابعة من عمره ٠٠ فحزن لفقدها أشد الحزن أن القى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحط من قوى أبيه

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى الى فينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه ٠٠ وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميالا للعزلة محبا للعمل حبا جما ٠٠ وكان لذلك قد جعل من البيانة (١) خير أصدقائه ٠٠ فاليها كان يبث شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عربدة أبيه جحيما ، واياها كان يستودع الافكار الطريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الافكار ارتجالا ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خلجات وما يجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتى أحب عما يغمر قلبه من هيام وما يحز فيه من غيرة ٠٠ بل لقد كان يتحدث بها الى أصدقائه ٠ ولم يكن أكثر منها بلاغة للعبارة عما فى نفسه ٠ فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقده أى جزع ، فلما

---

(١) البيانو على نحت الاستاذ مصطفى صادق الرافعى ٠

ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « ان ما أشعر به هنا لا سبيل الى بيانه ·· لكن البيانة ستقوله عنى » ثم جلس الى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى فى صدرها ألمه ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء ·· وكذلك كانت البيانة صديقته كما كانت موضع قوته فى الموسيقى وسلطانه فى الارتجال ·· بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار ـ الذى ملأت الحانه أذان ذلك العصر وما تزال الى اليوم من مفاخر الموسيقى ـ وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للغرفة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا الى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوما من الايام » ··

ذهب الى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالشتين · وكان أكبر همه من ذهابه اليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الالمان يومئذ · لكن هايدن كان مشغولا بمؤلفاته جد الاشتغال فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده · فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيه · وكانت أخلاق هذا الاستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة · وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من أثار النبو عن متعارف القواعد ما لم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى حلق فى السماك فخضعت له كل القواعد ·

وعضده يومئذ البرنس لخنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا · وألفت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائما عليها الاميرة لخنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقيم معهم حق قدره ·

ويومئذ كانت الثورة الفرنسوية تغزو العالم كله بمبادئها · وكان بتهوفن خصما لها أول أمره · لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادىء الجمهورية التى قامت عليها الثورة ، جعل منه نصيرا من أكبر أنصارها · ولذلك لم يتردد حين جاء اليه الجنرال الفرنسى برنادوت يطلب اليه أن

يضع لحنا « سيمفونية » لمجد قنصل الثورة بونابارت .
وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة ارساله الى باريس اذ علم أن نابليون توج نفسه امبراطورا . فما لبث أن عاد الى بيته ساخطا ومزق لحنه وقال : « كلا ! هذا رجل مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبرا . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كي يعيد هذا اللحن الى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الأسى ، كأنما ينعى به ما كان من انهيار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف الى عنوانه هذه العبارة « احياء لذكرى رجل عظيم » .

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضا . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب أوبرا فدليو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصور التي صورته فى ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله في المستقبل . ففي سنة ١٧٩٦ كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « اقداما ! وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى . ها أنا بلغت الخامسة والعشرين .. فيجب فى هذا العام أن يظهر الرجل كاملا » وذلك على أنه كان ما يزال فى بداية حياته العامة . فأول حفلة عامة له كبيانى وقعت فى ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب فى قوته ولم يخف ذلك على أحد من أصحابه . بل كان يباهى به على صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب الى الدكتور وجلر ـ صديق صباه فى مسقط رأسه ـ يخبره بنجاحه العظيم ، فكانت الفكرة الاولى عنده ظاهرة فى قوله : « أرى مثلا صديقا محتاجا ، فاذا لم يسمح لى جيبى بالاسراع الى معونته لم يكن على الا أن أجلس الى منضدة العمل فاذا بى فى وقت قصير قد سددت حاجته ، ألست ترى هذا غاية فى الجمال .. ويجب أن أقف فنى على معونة الفقراء » .

لكن ! يا لقسوة القدر ! فما كاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك اليه مساربها . بدأت هذه الآفة التى نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦ . فلما تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة

شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم ؛
وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنينا مزعجا ؛
وقد ظل سنوات يخفي مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف
تريد موسيقيا على أن يقول للناس انه أصم ! لكن ذلك لم يقعد
به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة
عن آلامه في عدد من الالحان التي وضعها في ذلك الحين فقد بقي
أكثرها بساما طروبا . غير أنه لم يطق كتمان علته بعد أن
احتملها خمس سنوات تباعا . فكتب في سنة ١٨٠١ يشكو
هذه العلة الى كثير من أصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا اذ كتب
يقول له :

« عزيزي الطبيب الرفيق امندا . كم كنت أرجوك بجانبي ؛
فصديقك بتهوفن بائس غاية البؤس . ذلك أن سمعي ، وهو
أكرم أجزاء نفسي علي ؛ قد ضعف كثيرا . وكنت أشعر منذ كنا
معا بأعراض المرض وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ؛
فهل أشفى ؟ أرجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائي فيه قليل ؛
فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء . وسأضطر
لقضاء العيش في بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز
علي ، وذلك بين عالم شقوة وانانية .. يالشقاء الاستسلام الذي
يجب أن ألجأ اليه . لا ريب اني فرضت على نفسي السمو فوق
كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ » .

هل من سبيل الى عزاء لبتهوفن عن هذا الألم ؟ هل من
وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هي المرأة
والسبيل هو الحب . فلو أن بتهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها
قلبه ويؤمن بها وبعظمته قلبها ، لكان له من ذلك ما يهون عليه
بعض همه . ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفا ؛ لكن
حبه كان قاسيا كالفضيلة التي امتلأ بها قلبه . وكان لذلك
يرى عارا أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشوبه الشهوة ؛
ولذلك عاب على موزارة قطعته « دون جوان » . على أن فضيلته
القاسية هذه هي التي كانت سبب فشل علائقه الغرامية جميعا
ففي سنة ١٨٠١ تعلق جوليتا جوكشياردي وأهداها لحنه المعروف
« ضوء القمر » ، وكتب الى صديقه وجلر يقول له « الآن أعيش
أكثر سكينة وأختلط بالناس أكثر من ذي قبل . ولقد أبدع

هذا التطور في حياتي سحر فتاة عزيزة تحبني وأحبها ، وهذه هي اللحظات السعيدة الاولى التى تذوقت منذ عامين » . لكن هذا الحب زاده شعورا بمرضه كما أن جوليتا كانت لعوبا شديدة الانانية لا تعبأ بآلام بتهوفن . ولم تعف في سنة ١٨٠٢ أي بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تتزوج من الكونت جالنبرج . وكان حب بتهوفن اياها طاهرا مخلصا ، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكتف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن باسم الطيبة ويقول « انه عدوى . وذلك هو السبب في اسدائي اياه كل خير أستطيع اسداءه » .

وأدى به انضمام والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جولييتا الى اليأس من الحياة والى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب الى « هيليجنستات » احدى ضاحيات فينا مستشفيا ، ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئا ؛ هنالك كتب وصيته التى نثبتها هنا ، وان كان قد عاش بعدها خمسا وعشرين سنة ، لانها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم ايمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه وحبه الناس ، وتدل على ان هذه العواطف كانت في نفسه هياجة ثائرة كهذه الموسيقى القوية الثائرة التي نسمعها له في كثير من ألحانه . وحتى في ألحانه الرقيقة اللحمة والسدا . قال :

« يا أيها الذين ينظرون الى أو يحسبونني حقودا أو برما بالناس أو متطيرا بالحياة لشد ما تظلمونني . انكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرني بهذا المظهر . فقد كان عقلي وقلبي متجهين منذ طفولتي الى عاطفة رقيقة هي الطيبة ، وكنت دائما مستعدا لأقوم حتى بعظائم الاعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه الحال التى زادها الاطباء الاغرار سوءا والتي ما أزال أخدع في أمرها عاما بعد عام آملا في تحسنها ، ثم أضطر آخر الأمر لاحسبها حالا مزمنة يقتضي البرء منها ، ان كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالا .

« لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات

الاجتماع ثم اضطررت وما أزال في أول عمري الى عيش العزلة
وحاولت التغلب على ذلك فصدمتني التجربة الاليمة القاسية
غير مرة ووجدت عندي الاحساس بمرضي ٠٠ ثم انى ما كنت
مستطيعا أن أقول للناس : ارفعوا الصوت وصيحوا فاني أصم
وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون
عندي أدنى الى الكمال منها عند الآخرين ٠٠ حاسة كانت في
الماضي بالغة من الكمال حدا لم يتح لقليل من أبناء فني أن
يبلغوه ٠٠ كلا ! لا أستطيع ، فاعذروني اذن ان رأيتموني
أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفي صحبتكم ؛
وشقائي مضاعف له ألمي ان كان سببا للحكم علي حكما
قاسيا ٠ ولقد منعت من ان أجد الراحة والطمأنينة في الاجتماع
بالناس وفي المحادثات الظريفة وفي العطف المتبادل ٠ فأنا
وحيد منقطع ٠٠ لا أستطيع أن أجازف بنفسي في الجماعة ٠٠
وما لم تكرهني على ذلك حاجة ماسة فيجب أن أعيش منفيا ٠٠
فاذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسي
من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمري ٠

ومن ثم أمضيت هذه الستة الاشهر في الريف ، وقد
طلب الى طبيبي الفاضل أن يعنى بسمعي جهد الطاقة ٠ وبلغ
من ذلك أكثر مما كنت أرجو ٠٠ ولقد شعرت غير مرة بالميل
للاجتماع بالناس وتركت نفسي تنال مناها ٠ ولكن ! أي مذلة
أن أرى رجلا على مقربة مني يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع
أنا شيئا ، أو يسمع غناء الراعي ولا أسمع انا شيئا ٠٠ ولقد
قربت هذه التجارب بيني وبين اليأس حتى كدت أقضي بيدي
على حياتي ٠٠ لكنه الفن ــ نعم هو الفن وحده الذي استبقاني
أواه ! لقد بدا لي أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم
كل ما أحسست أني مطالب بأدائه ٠٠ وكذلك أطلت في هذه
الحياة البائسة ، والبائسة حقا ، لجسد سريع التهيج حتى لينقله
أقل تغيير من خير الحالات الى أسوئها ٠٠٠ صبرا ــ كذلك
يقولون ! وهو الصبر الذي يجب أن أختاره الآن لي مرشدا ٠٠
وقد اخترته ٠٠ واني لارجو أن تظل عزيمتي على المقاومة ثابتة
حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتي ٠٠ وان يصلح
الحال أو يسوء فاني صابر ٠٠ ألا ليس يسيرا أن يكره

الانسان ، وما يزال في الثامنة والعشرين من العمر ، على أن يكون فيلسوفا .. وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأى رجل آخر ..

« اللهم انك لتستشف من سمائك حجب قلبي وتعرفه وتعلم انه عامر بحب الناس والرغبة في عمل الخير .. وأنتم أيها الناس اذا قرأتم يوما هذا الذى أكتب فاذكروا كم كنتم ظالمين اياى .. وان الشقى ليتعزى ذا رأى شقيا مثله قام برغم كل ما ألقت الطبيعة فى سبيله من عقبات بكل مافى جهده أن يقوم به ، كى يكون فى وصف رجال الفن والصفوة المختارة ..

هيلجنستات فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ .

لدفج فان بتهوفن

« هيلجنستات فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ ــ والآن وداعا وداعا أسيفا ــ ان الامل العزيز الذى جئت به الى هنا ، هذا الامل فى أن أشفى ولو الى حد يجب أن أيأس منه كل اليأس ــ وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى ــ كذلك هذا الامل جف فى نفسى وذوى ــ كما جئت الى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التى كثيرا ما استندت اليها أيام الصيف الجميلة ــ أواه أيها القدر ! ــ هب لى أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو ــ أواه متى يا رب ؟ متى أستطيع أن أحس بها فى معبد الطبيعــة والناس .. أبدا ! ــ كلا ! فذلك يكون أبلغ القسوة » ..

لم تنشر هذه الوصية الا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد ايمانه مع ذلك بالفن .. هــــذا الايمان الذى جعله يستأخر الموت وان كان فى الموت راحة له من شقوته وأوصابه ويستأخره ليتم رسالته وان عانى فى سبيل اتمامها من الآلام ما لا قبل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النوابغ حقا يستهينون فى سبيل ابراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يجزعون منه ويفرون .. فبينا كان بتهوفن يكتم هــــذه الصيحات الفاجعة مكتفيا بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه وباثباتها على القرطاس لتكون سبيلا الى سلامه بعد موته ، كان أخواه يستغلان ألحانه استغلالا ماديا ما كان بتهوفن ليعنى به لولا

حبه لاخويه حبا يتفق مع عظمة الفضيلة التي تفيض بها نفسه أناشيد وألحانا قدسية سامية ... وكثيرا ما حجبه إصحابه فيما يجني عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكي : « لكنهما أخواي » ... وما لاخويه وبكائه ؟ انه لهما مزرعة تستغل ومورد رزق فياض .. كتب أحد أخويه لناشر يطلب بعض قطع اصلية من الحان بتهوفن وأناشيده :

« ليس لدينا من ذلك الآن الا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمن كل ثلاثمائة فلورين .. أفتريد ثلاث سوناتات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع أن نقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين ، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة ، لأن أخي أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات وبدينا ... » وذكر بفيه « البضائع » وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله الا ما يقيم حياته المليئة بالآلام .. فأما هذه الحياة التي يحتفظ هو بها لنفسه فليست في ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله في حاضره ومستقبله .. هي قيثارة قدسية بعثتها يد العناية الى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية في الخلق من نغمات .. والى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذبا شقيا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الاقل يجب أن ينسيه ايمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لابلاغها هذا الشقاء وهذا العذاب ..

لكن المرأة هي البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه .. وقد عبثت جوليتا ببتهوفن عبثا قاسيا رغم ما كان من شديد تعلقه بها .. فهل جفاه الحب بعدما جفته هذه اللعوب الاثرة المحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالدة ؟ كلا ! فما تزال لبتهوفن ساعات سعادة في الحياة ينعم بها رغم همه وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هي : تريز برنسويك ..

وكان بتهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الاولى في فينا اذ كان يعلمها البيانة . لكنه لم يعلقها يومئذ ولم يسر الى قلبه خاطر الحب منها وان اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصداقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم في مارتنفاسار بالمجر . قالت تيريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن في

ضوء القمر الى البيانة ومر بيده على ملامسها ٠ وكنت أعرف أنا وأخي ذلك منه ٠ فكذلك كان يبدأ دائما ٠ ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار ٠ ثم انتقل من ذلك الى لعب أغنية سباستيان باخ « ان شئت أن تهبيني قلبك فليكن ذلك أول الأمر في خفية حتى لايستطيع أحدأن يحس مسارج أفكارنا المشتركة » ولعب هذا اللحن في وقار وهيبة ، وكانت أمي وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخي الى ما أمامه ذاهلا ٠ أما أنا فأخذتني نظرته وأخذني غناؤه وأحسست بالحياة كاملة ٠ وفي صباح الغد تقابلنا في الحديقة فقال لي : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها في دخيلة نفسي وأراها أمامي حيثما ذهبت وأينما أقمت ٠ وما أحسبني سموت يوما هذا السمو ٠ فكل ما أمامي ضياء وطهر ونور ٠٠ وفي شهر مايو أصبحت مخطوبته باقرار أخي فرنسوا وحده » وظلت هذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين انفصمت عروتها وان لم تنفصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو في سنة ١٨٢٧ وماتت هي وما تزال على عهده في سنة ١٨٦١ ٠

وكان لهذا الحب في نفس بتهوفن وفي حياته الموسيقية أثر أي أثر ٠ فاللحن الرابع الذى كتب في أول أعوام الخطبة زهرة يتضوع بشذا السكينة والخلود الى صفو العيش مع الناس ٠ وكذلك كانت الالحان التى كتبت في هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترنما بنعمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف باغاريده بلابله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه ٠ ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى الى حياته فجعله محبا للتأنق في ملبسه ميالاللاختلاط بالناس والتحدث اليهم ، حاضر النكتة ظريفا ، وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه الا ضعف بصره الحاد النظرة ٠ ومن ذلك العهد السعيد في حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطابا يبث فيه لتريز ما يبعثه الحب المضطرم في النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة قال فيه :

« يا ملاكي وكلي ونفسي ، انظرى في بدائع الطبيعة واطمئني الى ما هو محتوم ٠ ٠ فالحب يلح عدلا في أن يكون له كل شيء ذلك شأنه معي في أمرك ، وهو شأنه معك في أمرى ٠ ان قلبي

لمفعم بما أريد أن أبثك اياه · أينما كنت فأنت معي · الى
لأبكي حين أذكر أنك لن تقفى على أول اخبارى قبل يوم الاحد
على الغالب · انى أحبك كما تحبينني بل أقوى وأشد · الهى !
أية حياة هذه من غيرك ·· فأنت قريبة بعيدة · وأفكارى
تتدافع نحوك يا محبوبتى الخالدة ، وهى سعيدة طورا ، حزينة
تارة تسائل القدر هل هو سيرعانا ··· أنا لا أستطيع العيش
الا معك والا فلا عيش لى · ولن ينال غيرك قلبى أبدا · أبدا !
لم يجب يارب أن يبتعد متحابان كل عن صاحبه · على ان حياتى
انما هى الآن حياة أحزان · ولقد جعلنى حبك فى نفس الوقت
أسعد الناس وأشقاهم ، اطمئنى · اطمئنى · وأحبينى اليوم
وبالأمس · ما أعظم تطلعى اليك وما أكثر دموعى من أجلك ·
أنت ·· أنت ·· أنت يا حياتى · يا كلى وداعا ــ وأقيمى على
حبى ولا تنسى أبدا قلب حبيبك بتهوفن ــ لك الى الأبد ــ لى
الى الأبد ــ لنا الى الأبد » ·

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته · ولعله
كتبه فى آخر سنوات خطبة تريز له ؛ ففيه من اليأس أكثر
مما فيه من الرجاء · وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل
هو سيرعاهما تنبىء عن بداية انحلال الخطبة · على ان قلبه
وقلبها ظلا عامرين بهذا الحب الى آخر حياتهما · فمن كلمات
بتهوفن فى سنة ١٨١٦ : « يدق قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة
التى دق بها حين رأيتها لأول مرة » · وفى هذه السنة عينها ،
سنة ١٨١٦ ، وضع الانغام الاربع البديعة · « الى العزيزة
المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض قلبى لمشهد هذه
الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا الى جانبى » وكانت
تريز قد أهدت اليه صورتها وكتبت عليها هذا الاهداء « الى
النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب » · وقد دخل
صديق على بتهوفن فى آخر سنة من سنى حياته فالفاه يقبل
الصورة ويبكى ويناجى نفسه بصوت رفيع : « لقد كنت
جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت كالملائكة الاطهار » · وبلغ من
شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوما الى أحد أصدقائه « أيها
المسكين بتهوفن ــ محدثا عن نفسه ــ ليس لك فى هذا العالم
حظ من السعادة ، انما حظك منها فى رحاب المثل الاعلى ؛

فلك فيه أصدقاء » وكتب فى مذكراته « اسلاما ! واسلاما تاما لحظك • انت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وانما تعيش لغيرك ولم يبق لك من نعيم في غير فنك •• اللهم هبني قوة الانتصار على نفسي » هذا ولم تفتأ تريز تذكر بتهوفن الى آخر حياتها • فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك ما لم يقف عليه أحد •• ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية •• ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسي السريع الى التطير والذى لا تهون الحياة البيتية معه ••

على أنه كان قد وصل فى سنة ١٨١٠ الى أوج قوته وجلس على عرش مجده •• وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها رأته بتينا برنتانو بمعرفة عظماء الالمان فى سنة ١٨١٢ لاول مرة •• ولم تكن فى حاجة الى أكثر من مرآة وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت :

« ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » ••

ثم كتبت الى جيتى تقول :

« لما رأيته لاول مرة انمحى الوجود كله من أمامى •• ولقد أنسانى بتهوفن العالم وأنسانى اياك أيضا يا جيتى •• وما اظنني مخطئة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل » ••

وأراد جيتى أن يعرف بتهوفن فتقابلا فى حمامات بوهميا بتوبلتز فى ذلك العام نفسه لكنهما لم يتفاهما •• فخلق بتهوفن العنيف الحر لا يتفق مع خلق جيتى الرقيق الوادع • ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسيا كل القسوة مع دوق فيمار •• قال فى خطاب بعث به الى بتنافون ارنم :

« يستطيع الملوك والامراء أن يخلقوا الاساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم فى الرتب والالقاب ، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا عظماء الرجال والاذهان التى تسمو على المجاميع •• فاذا اجتمع رجلان مثلى أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا •• ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا فى الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتى نفسه من ذراعى ليقف على حافة الطريق •• وعبثا قلت له

ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه عند ذلك كبست قبعتي في رأسي وزررت رذنجوتي وسرت وذراعي وراء ظهري وسط الجموع الكثيفة .. وأفسح الامراء والحاشية لي طريقا ورفع لي الدوق رودلف قبعته .. وكانت الامبراطورة أول من حياني .. فالعظماء يعرفونني .. أما جيتي فمر امامه الجمع وهو في مكانه على حافة الطريق منحن أشد الإنحناء وقبعته في يده .. وقد لمته أشد اللوم بعد ذلك ولم أغتفر له قط تصرفه » ..

ولم ينس جيتي له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو في آخر حياتهما .. قال جيتي لزلتر :

« بتهوفن شخصية لاسبيل مع الاسف الى تألفها .. وقد لا يكون مخطئا اذ يرى العالم كريها .. لكن خلته في الحياة ليست هي الوسيلة التي تجعل العالم حلوا له ولغيره .. على أن من الواجب أن نعذره أو تشفق عليه .. فهو أصم .. » .

على أن كراهية جيتي لم تمنعه من الاعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وان جاهد لاخفاء ذلك طاقته .. ذكر مندلسن أن جيتي سمع أحد ألحان بتهوفن فحاول اخفاء اعجابه قائلا : « هذا لا يمس القلب ولكنه يثير الدهشة » .. ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله ، فلم يتمالك أن قال : « هذا بديع وعظيم وفوق العقل .. اني لاحس كأن البيت سينطبق على » .. وبعد أن كان لا يريد أن يسمع بتهوفن جعل يسأل عن أمره ..

وكان الدوق رودلف الذي أشار اليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضي هو أن يكون أستاذا لهم .. وبرغم اعفاء الدوق اياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطرا له بداعي المجاملة من هذه التكاليف .. ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الامراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء ، أمثال هايدن وموزار ، وان بقى لديهم شيء من العطف على البائس بتهوفن .. وزادوا عليه عطفا حين بدأ نجم نابليون يأفل .. فان بتهوفن لم ينس خيانة هذا الجمهوري الذي اتخذ الشعب سلما للامبراطورية : فلما انتصر الانكليز عليه في موقعة واترلو وضع بتهوفن لحنا

لانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التى أقامتها أمم أوربا ضد فرنسا .. وفى أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحنا حربيا عن « بعث المانيا » .. فلما انعقد مؤتمر فينا على أثر هزائم نابليون كان بتهـــوفن فى ذروة عظمته وقوته ، فشارك فى أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوربا ورأس فى ٢٩ نوفمبر سنه ١٨١٤ الاركسترا التى لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد » . فلما سقطت باريس فى سنة ١٨١٥ وضع نشيدا جعل عنوانه « انتهى كل شيء » .. وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلفه المثابر وبشـــه وجبروته .. هذا الجبروت الذى أباح له بعد موقعة يينا احدى مفاخر نابليون أن يقول : « من سوء الحظ أنى لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى . اذا لهزمته » ..

وكان حظ بتهوفن مذبذبا : فما تكاد آونة طمأنينته تطول به زمنا حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتهـا أضعاف حلاوة تلك الاونة .. فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر .. وبلغ أن فكر فى هجرتها رغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكوفتز والبرنس كنسكى منذ سنة ١٨٠٩ إذ رتبوا له معاشا سنويا أربعة آلاف فلورين على أن يظل فى النمسا ليظل فخرا لها .. ورغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فانه سر بهذا الاعتراف بمجده .. فلمـا مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل .. لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاما فى سنة ١٨١٦ .. وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنا ولا نشيدا الا فى دخيلة قلبه .

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهم .. فقد أراد أن يدير أوبرا فدليو فى سنة ١٨٢٢ .. وكان جليا منذ الفصل الاول أنه عاجز عن هذه الادارة كل العجز .. فقد كانت عصاه بطيئة فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها .. لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون .. وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل الى ايقاف التمثيل .. ثم عاد بتهوفن الى الادارة وعاد التمثيل الى الاضطراب .. قال صديقه الدكتور شندلر : « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه

ليقول لبتهوفن : تنح اليها البائس فأنت عاجز عن الادارة .
ووقف التمثيل للمره الثانية فوقف بتهوفن ينظـر في كل ناحية يريد ان يعرف سبب الاضطراب .. ولما لم يفهم شيئا ناداني إليه ومد الى كراسنه لاكتب له .. فكتبت : ارجوك أن لا تستمر وسأفسر لك في البيت سبب ذلك .. فما هو الا أن قفز صائحا : فلنعجل بالخروج .. وجرى الى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهـه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة .. وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الالم الفاجع والانحلال الاليم ..
فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجاني أن أصحبه الى طبيب كان معروفا بأنه من خير أطباء الآذان .. وفي كل ما تلا ذلك من صلاتي ببتهوفن لم أر يوما كهذا اليوم القاسي من أيام نوفمبر .. وقد بقي هذا المشهد الاليم طعنة في قلبه حتى فاجأته منيته » ..

وفي سنة ١٨٢٤ كا نحاضرا لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئا ولم يعرف من أمر اجلال الناس لقطعته الا بعد ما أمسكت مغنية بيده وأدارت وجهه الى ناحية الجمهـور ليرى الايدى المصفقة والقبعات التى تهتز في الايدى علامة الاعجاب والثناء.

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجـة واعواز ، فهذا الذى كان يفرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين فرضا وصل في أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لاحد تلاميذه:
« أكتب هذه (السونات) في ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الانسان للكتابة كي يحصل على الخبز .. وهذا هو حالي اليوم » .. وكتب في مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد أتكفف الناس » .. وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه أنه كان لا يستطيع الخروج من بيته في بعض الاحيان بسـبب ثقوب حذائه ..

وفي هذه الايام الاخيرة كان لا يأنس الى الناس ولا يعرف غير الطبيعة..فكان يرى هائما في الغابات والاحراش ، وليس له هم الا تدوين الانغام والالحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج .. قالت تريزدى برنسويك : « كانت

الطبيعة صديقه الوحيد وكانت كل مذكراته تفيض هياما بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته .. ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعانى الطبيعة .فيضا حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها ان صار قوة من قواها أو انه « ملك روحها » على حد تعبير صديقه شندلر .. كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر ألحان بتهوفن فى نفسه : « مهما يتكرر سماع الانسان لهذا اللحن فانه مؤثر فيه بنفس القوة التى أثر بها من قبل .. فهو كالظواهر الطبيعية التى تمثل دائما خوفا ودهشة مهما تكرر حدوثها » .

ولعل بتهوفن كان محبا للطبيعة ، لانه من روحها لا . لانه ملك هذا الروح .. ولذلك كانت حياته ، ككل ما فى الطبيعة حياة نضال لا يعرف اليأس ، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود .. فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذى بلغ الاعواز ، بمانع له من أن يتم فى عالم النغم رسالته .. أو تدرى ما هذه الرسالة التى كان يجاهد فى سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث واحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الارض .. كأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتى بالغ الصانع فى اتقانها ، فما تزال مبعث أحلى الانغام وأبدعها .. ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الايمان .. ومنذ ظهرت بوادر نبوغه فى الموسيقى فكر فى تبليغها للناس عن طريق الالحان ، ففكر فيها وما يزال فى يونية سنة ١٧٩٣ .. وكانت نهاية أملة أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة .. وكان ذلك دأبه وهو فى أشد حالات العذاب والالم .. لكنه كان يتردد دائما ان لم يكن شىء مما وضعه ليكفى مقنعا لصورة المسرة عنده .. وظل ذلك شأنه حتى السنوات الاخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع .. حينئذ وفق لهذا النشيد الذى يرجوه .. ولكن أى توفيق وأية عظمة !..

قال أحد الكتاب يصف هـذا النشيد البديع الذى يختتم اللحن التاسع : « ساعة تبدأ آية المسرة تبدو ، يقف الاوكسترا فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيا رهيبا .. وذلك حق .. فهذا النشيد اله وحده ..

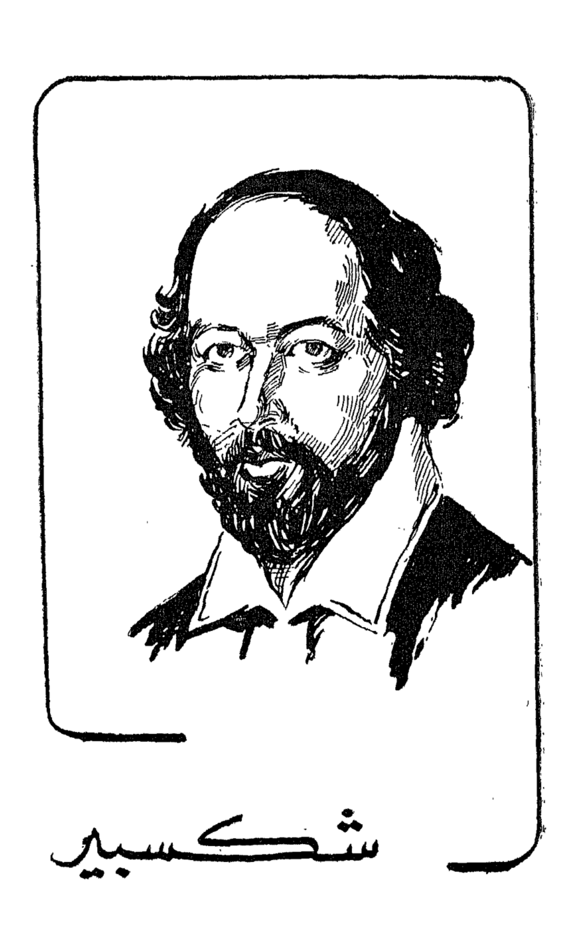
ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى الى القلب جريان البرء فى فؤاد المريض ، ثم تسمو بعد ذلك فى صورة من الجد المهيب رويدا رويدا حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حربا على تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة ، فكأنما ترى نبض بتهوفن الالم عوانا .. ثم اذا الالحان تحرك فى النفس جنود السرور القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكته قوة الشـياطين .. وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالايمان ، ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هى مسرة الحب .. ثم ترى انسانية مرتعشة تمـد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة الى المسرة تضمها الى قلبها) ..

هذه القوة العجيبة التى تبدو فى أكثر ألحان بتهوفن والتى بدت فى لحن المسرة مضاعفة ، جعلت كثيرين يذهبون الى أن ملكه فى الموسيقى يقف عند الضخم منها والاليم . قال هبوليت تين ردا على هذا وتحليلا لموسيقى بتهوفن عامة : « نعم انه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الاعاصير وتعصف فيها العواصف بأصواتها الصاخبة القوية .. وهذه المملكة لم يتح لغيره من الموسيقيين أن يدخلها .. لكنه يعيش كذلك فى ملك آخر .. فأفخر ما فى الريف الناضر وأكثره رواء وبهجـة ، وأعذب ما فى الوديان الظليلة وأكثره ابتساما ؛ وأشد ما فى ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة ـ هذا كله كذلك فى ملكه .. لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطمئن النفس ؛ بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الالم !! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة .. فهو ليس سعيدا ، ولكنه فى بهر ، فمثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطربا كليما متوقعا يوما شرا منها ، فاذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد ؛ اذ ذاك تضطرب يده وبتنفس الصعداء من أعماق صـدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة فتسترد سلطانها ؛ ويصبح فى تهلله من النعيم أشد اندفاعا مما كان حين استسلامه لليأس .. ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو لنجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وان ظل يعانى من بأسائه

شر ما يعانيه الانسان ٠٠ ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التي كان اخواه يقتضيانها من الناشرين ، فقد مات أحدهما تاركا من ورائه ولدا أحبه بتهوفن بهذه القوة التي كان يندفع بها الى كل شيء ٠٠ وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه اياه ولا مداومته نصيحته ٠٠ وكان هذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بتهوفن في فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه ٠٠ وسافر بتهوفن في خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيله يوطد بها مستقبل ابن اخيه هذا ٠٠ فلما عاد في أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه ٠٠ ولم يكن أحد من اصدقائه حاضرا ليعنى به ٠٠ فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنسى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجا سيئا ٠٠ وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعا ، لكنه ضعف بعدها ضعفا أضاع الامل في شفائه ولولا كرم بعض الانجليز من أصدقائه لقضى آخر ايامه في بؤس وشقوة ليس كمثلهما بؤس ولا شقوة ٠٠

ثم جعل ينتظر في صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧، اذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت الطبيعة أصوات موسيقاها المهوبة المخيفة ٠٠ وعلى موج هذه الاصوات طارت روح بتهوفن الى عالم الخلد ٠٠ وكان عمر بتهوفن يومئذ ستا وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام ٠٠ فلما آن لجثمانه أن ينقل الى مقره الاخير شيعه ثلاثون ألفا ولبست فيينا عليه الحداد ٠٠ ودفن في مقبرة وارنج، وما يزال قبره الى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن ٠٠

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى الهاما أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ، ويتمثل أفكاره في عزف الآلات أكثر مما يتمثلها في ألفاظ الناس ٠٠ وكذلك قضى « باكوس ، الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلي عليها أقدس ما في الروح من جلال » ٠٠ قضى ونقل الى قبره حيث خط اسمه ٠٠ لكن روحه الماثل في ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقيا ولن يزال ٠٠ وهل الروح الخالد الا العمل يترك به صاحبه في العالم أثرا خالدا ؟ ٠٠ وهل أثر أخلد من موسيقى بتهوفن !! ثم هل أثر أكثر منها سحرا وقداسة ؟!


شكسبير

« ما حاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليها رفاته المجيد ؟ ما حاجته أن تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجد العظيم ! ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من اعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى ؟ »

« ملتن »

« تمثالا لشكسبير ! ولماذا ؟ ان التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انكلترا كلها لخـير له من كل تمثال ٠٠ ليس شكسبير بحاجة الى هرم وله مؤلفاته ٠٠ وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ ان الاحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهـدهم عبثا ٠٠ فالعبقرية هى العبقرية من غير حاجة اليهم ٠٠ ولو اجتمعت الاحجار كلها ، أفتراها تكبر هذا الرجل اصبعا ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء ــ العاصفة ــ زوجات وندسور المرحات ــ يوليوس قيصر ــ كريولان ٠٠ وأى أثر أعظم من لير ، وأشد تجهما من تاجر البندقية ، وأبهر من روميو وجولييت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث ٠٠ وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث الهائلة الضجيج ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أوتللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحـــاس هملت ؟ لن يوازى بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هـــذا الروح • روح العبقرية العميق • روح الله يتجلى به على لسان الانسان ٠٠ ورأس فيه فكرة هو القمه ٠٠ أما أكداس الاحجار فجهود ضائعة ٠٠ وأى بناء يساوى فكرة ؟ ان بابل لدون ايزاس ، وخوفو لاصغر من هوميروس ، والكوليزيم لاقل من جوفنـــال ، وقصر أشـــبلية قزم الى جـــانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لا توازى كعب دانت ٠٠ فكيف تستطيعون وان جهدتم أن تقيموا برجا فى رفعة هذا

«الاسم : شكسبير ؟ »

« فيكتور هوجو »

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هوجو ٠٠ فأنت لا تعنى اذ تذكر شكسبير أأقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب وأهرام وأنت لا تذكر الى جانب اسمه ما تذكره الى جانب اسم نابليون من عماد فندوم أو قبر الانفاليد ٠٠ بل أنت اذ تذكر شكسبير تنسى كل ما فى العالم غير ما خلف شكسبير ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامى فوق كل مراتب الشعر والذى يزداد سموا كلما ازددت فيه امعانا ، حتى لتنسى الى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لانك ترى فيه عالما كاملا من الاشياء والناس والالهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن ٠٠ ولتنسى الى جانبه الاعجاب فى الحياة بأى شيء سواه ٠٠ هذا وشكسبير لم يكن ملكا ولم يكن غازيا ولم يكن عظيما فى قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤذيه رسالته حتى لتحرقه ٠٠ ومن هذا الاذى ومن هذا الاحتراق تتعطر الحياة بأريج تلك الرسالة وتزداد بهذا الاريج شعورا كلما ازداد عطر الاحتراق والاذى ذيوعا وانتشارا ٠٠

نعم ! لم يكن شكسبير ملكا ولا غازيا ولا عظيما فى قومه ٠ بل كان مؤلف روايات وكان مهرجا ٠٠ كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة الى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الاحيان من هذا الجمهور الذى أضحكه غير السخط والازدراء ٠ ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديدا وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره ٠٠ لكن الزمن الدائم الكر والذى يصهر تراث الماضى فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد فى شكسبير الا جوهرا يشع فى المستقبل الى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد الا تطلعا اليه واعجابا به ٠٠ وهذا الزمن وجد فى الهام شكسبير الشعرى علما وحكمة ، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر انكلترا الاول بعد شكسبير ، وهوجو مقدم شعراء فرنسا ومترجم شكسبير

الى الفرنسية ..

واذا لم يكن شكسبير عظيما فى قومه فليس فى تاريخ حياته ما يقف النظر عنده الا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة ..

ولد فى ستراتفورد ـ أن ـ ايفن فى ٢٣ ابريل سنة ١٥٦٤، أى فى عصر الملكة اليصابات أحد عصور انكلترا الزاهرة ، وفى القرن السادس عشر عقب الانقلاب الدينى العظيم الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا مما تأثرت به أية أمة غيرها .. وكان أبوه جون شكسبير محترما فى قومه لانه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه .. وقد اختلف الرواة فى الصناعة التى كان يزاولها جون بين أنه كان تاجرا أو مزارعا أو جزارا .. ويذهب كثيرون الى أنه كان يزاول هذه المهن جميعا كما يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة .. ولمكانته من قومه انتخب فى مجلس بلدته القروى ونيطت به أعمال قاضى المصالحات .. وفى سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم ما يزال ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى بداءة تعليمه .. فاضطر للاستعانة به فى كدح الحياة .. وجعل الفتى ـ على قول بعض مترجميه ـ « يقتل العجول لابيه ويلقى وهو يقوم بعمله خطبا رائعة الاسلوب على سامعيه .. » وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج فى الثامنة عشرة من عمره من أنا هثواى ورزق منها فى ٢٦ مايو سنة ١٥٨٢، فتاة أسماها سوزان وتوأمين غلامين فى فبراير سنة ١٥٨٥ .

على أن هموم الحياة ومشاغل الاسرة لم تغير شيئا من خلقه المضطرب الثائر .. فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفخرة قريته ، كما أنه كان لا يتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار الملاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوسى كبير قضاة قصبته .. وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة .. وفيما هو يوما يجارى أهل قرية مجاورة فى الشراب سكر حتى لم يستطع العود الى أهله .. فلما أصبح ذكر حاله وما آل اليه أبوه الذى أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لا احترام له بين أهله برغم ملا

كان يشعر به فى نفسه من تفوق على أقرانه ان كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه ، فهجر ستراتفورد الى لندرة وهو لايدرى ما يستطيع أن يفعل فيها ..

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضنيه الضنك والعوز فاسرع الى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بخيول المتفرجين على أبواب المسارح فاذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم .. ولعل لهـذه الحرفة الوضيعة حظا غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة .. فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك باحدى الفرق فى أدوار تافهة .. لكنها كانت سـلمة الى أدوار خير منها .. ومع أنه لم يكن يوما ممثلا بارعا ولم يصل الى النبوغ فى التمثيل الا ما كان من نبوغه فى دور طيف والد هملت فان خشبة المسرح هى التى دفعته الى كتابة روايات تشهد الاجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسة .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيرة سبب هذا المجد العالى فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفا آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر فى عمله .. ذلك ان اضطرابات العاصمة الانكليزية أدت الى اقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . واذ كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ما أغناه عن اتباع الفرق التمثيلية فى تجولها .. فقد ظل مدى هاتين السنتين مكبا على دراسة اللغات الفرنسية والايطالية والاسـبانية ، مكبا على النظم والتأليف .. وخلالهما استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية .. فكتب فى ابريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وأدوينس Venus and Adonis كما كتب فى مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهداها الى لورد سوزامبتن . ويقال أن اللورد شجعه على الاستمرار فى عمله وأعانه بألف جنيه دفعها له فمكنه من زيارة شمال ايطاليا واتقان لغتها ، التى كان قد بدأ يدرسها فى لندرة ، والوقوف على كثير من الاساطير الايطالية التى استعان بها فى رواياته .. وفى أثناء زيارة ايطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التى نشرت بعد ذيوع اسمه والتى أهـدى

أكثرها الى لورد سوذامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل فى تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة الى عاصمة بلاده ..

وفى صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير الى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل .. ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفى على أحد خصوصا أنها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل .. لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصوت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وأن كانت براعته الحقة فى تواليفه .. وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب فى أرباح مسرح (الجلوب) الذى كان يشتغل فيه ، فاستطاع بذلك أن يشترى فى بلدة ستراتفورد دورا وضياعا وأن يعيش فى رغد ونعمة وأن يعيد آباه وأهله الى حب الحياة .. وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأنالته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعة والحقارة يشعر الانسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه أثناء مقامه بايطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش مفر من احترافها .. وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير فى حضرة الملكة ليزابث وان نال من عطفها ، وان يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها ..

وبقى شكسبير يؤلف فى السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا واياه على خير وفاق .. وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (أومند مالونى) كتابا سماه « محاولة لتحقيق الترتيب الذى كتبت به روايات شكسبير » .

(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written).

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده .

وفى سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندرة الى ستراتفورد

حيث عاش عيشا هادئا مكتفيا بما جمعه من مال مستمرا مع ذلك فى كتابة رواياته ·· ويذهب بعض مؤرخيه الى أنه كان مع ذلك يعود الى لندرة الحين بعد الحين ويشترك فى تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح الجلوب فى ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن ·· هنالك انسحب شكسبير الى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعا وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه ·· قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لاول نظرة خاتمة تاجر لا خاتمة شاعر · أفتعزوها الى هذه الغريزة الانكليزية التى ترى السعادة فى حيـاة رجل الريف صاحب الملك حسن الايراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن به الناس الى مكانته واحترامه والى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم أن شكسبير كان كفولتير رجلا موزونا وان يك خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته، حذر لتشككه مقتصد لحاجته الى الاستقلال عن الناس ، قدير ، بعد أن يحيط بكل ما مر بخاطر الانسان أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه الملىء المتين ·· ذلك انه لكثرة ما أنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال المتموج ·· وانه فى تصويره الشهوات قد بلغ ما بلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات اياه ·· وان الاندفاع لم يحدث فى سلوكه انفجارا لانه كان يجد فى الشعر مصرفا لاندفاعه ·· وان رواياته حفظت عليه حياته لانه ألم من خلالها بكل ما فى الحياة الانسانية من هوس وتعس ، فاستطاع أن أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسـيقى الاثيرية التى أبدعها فى رواياته ·· وأريد أن أفترض أخيرا أنه كان فى جسمه ، مثله فى سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وان متانة العضل كانت عنده مثله عند رابليه وتسيان وميكلنج ورينس ، توازى حساسية الاعصاب ·· وان الماكينة الانسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى ·· وان النفس والجسم

كانا ما يزالان متوازنين فكان النبوغ يومئذ زهرا وثمرة ، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضا » ..

***

قد يكون هذا التصوير الذى فرضه تين لحياة شكسبير صحيحا .. لكنه لا يزيد على أنه فرض فى رأى تين نفسه .. على أنك اذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير ورواياته فقد وجبت دراسة ذلك كله دراسة لا يتسع المقام هنا لاكثر من الالمام بشىء منها الماما بسيطا ..

نشأ شكسبير ، كما قدمنا ، فى العصر الذى أعقب الانقلاب الدينى الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها .. وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد ما يزالون متأثرين قبل كل شىء بأساسه وهو حرية التفكير . وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادى أمام الانظار .. ولم تكن بعد قد تركزت فى النفوس قواعد المذهب الجديد تركزا ثبت الايمان بها تثبيا يحول دون تحطمها .. كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الاوهام المحسنة التى تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين ــ لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر فى انكلترا تسيغ الالحاد ولا تنزعج لاعلانه ولا تضطرب أمام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار وإباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال فى الحياة وفى المتاع بها اعتدالا يبقى عليها ويطيل .. ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد وهى لا ريب كانت قوية الاثر فى رواياته .. فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين فى أجمل قالب وأبهاه ، ما لايحتمله عصر غير عصره الذى كان مجاورا للعصور الوسطى والذى لم يتخلص من خرافاتها وان أباح لنفسه هدم هذه الخرافات .. وكما أثر العصر فى شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من ايمان بالسحرة وبالجن حتى لنرى كثير منا فى رواياته .. ثم ان هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر وكان القتل أمرا شائعا فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب الا أنه أنكر على الملك سلطانه الدينى أو أنه أغضب رجلا ذا

سلطان باشارة أو بكلمة ٠٠ أضف الى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهائها فى أحيان كثيرة الى قتل أحد المتبارزين ٠٠ وهـــذا الاستهتار بالحياة الانسانية هو سر ما نرى فى أكثر روايات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهى أغلب الامر الى موت أشخاص الرواية جميعا ٠٠ ثم ان التمثيل على النحو الذى نعرفه اليوم كان فى ذلك العصر ما يزال فى دور نشأته حتى لم يـــكن معروفا فى كثير من البلاد ومن بينها فرنسا ٠٠ فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث ٠٠ ولذلك أنت ترى فى شكسبير مناظر مختلفة فى الفصل الواحد قد لا يكون بينها أية صلة ، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات من الاميال ٠٠ ثم انك ترى كذلك فى هذه الروايات خلطا عجيبا من أحط ما تنزل اليه الجماعة فى حياتها العادية التافهة ، ورفعة لا تدانيها رفعة فى سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات فى النفوس ٠٠

وهذه الظواهر التى تجدها سائدة فى دول أوربا كلها فى ذلك العصر كانت أكثر وضوحا فى انكلترا ٠٠ ومرجع ذلك أن الخلق الانكليزى بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديهـــا بالدماء ٠٠ وكان كذلك فى تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم ٠٠ ولذلك كانت انكلترا أسرع من غيرها الى الاخـــذ بالمذهب الدينى الجديد ٠٠ ولذلك كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أكثر تفشيا بين هؤلاء السكسونيين ٠٠ وكان من شأن السحرة عندهم ما لا تعجب بعده لطيف هملت ولا لساحرات مكبث ٠٠ ثم كان من استهتار الناس بالحياة ما ترى آثاره فى شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصا من أهل هذا لزمن ٠٠ فليس عجيبا اذن هذا الذى نرى فى شعر شكسبير من مجازر وخرافات وان خيل لبعضهم بادىء الامر أن فيه شيئا من العجب يدعو الى عدم تصديقه ٠٠

واذ كان علم شكسبير راجعا الى ملاحظه الطبيعية أكثر من رجوعه الى دراسة الكتب ، وكانت معلوماته التى استند اليها فى تأليف رواياته لا تزيد عن معارف سطحية فى التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فان كثيرا من رواياته لا تعتمد عـــلى

أكثر من أساطير سمعها أو قرأها فى الكتب التى يتناولها الناس جميعا وفى مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك ٠٠ فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية ينكرها أكثر المؤرخين ٠٠ ورواية روميو وجولييت أحدوثة ايطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها أثناء سياحاته فى شمال ايطاليا أوقرأها ولم يستتمها فى بعض الكتب ٠٠ ذلك أن هذه الاحدوثة تنتهى بأن روميو لما بلغه موت جولييت حضر الى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، ولما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدرا فقد استيقظت وروميو ما يزال فى النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه ٠٠ وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذى زج به محبها فى أعماق قلبه ٠٠ ولم يشر شكسبير الى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والالم فدل بذلك على أنه لم يعرفها ٠٠

هذا التحليل للمحيطات التى وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقة وضعه رواياته وقد يهدى الى أسرار ما ترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافه غير لائقة بعبقرية فذة كعبقرية شكسبير ٠٠ لكنه مع ذلك لا يدلنا على شىء من سر عظمته ولا يهدينا الى كثير من سر شعره ٠٠ والحق أن البيئة والزمن وحدهما لا يفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر وان بينا مراميه وكشفا عن أغراضه ٠٠ فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تنفح بها الطبيعة شخصا من الناس على حساب مواهب أخرى ٠٠ وعبقرية شكسبير كانت فى ملاحظته وفى خياله وفى شاعريته وكانت فى ثقوب نظره ثقوبا يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الانسانية وأن يصفها وصفا حسبه الناس بادىء الامر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة العلمية التى لاتقبل نزاعا ولا جدلا ٠٠

وكانت مظاهر الطبيعة فى أرق صورها وأجملها أول ما فجأ خيال شكسبير ٠٠ فأنت لا تقرأ له رواية ولا مقطوعة الا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفا موسيقيا بديعا يدلك على مبلغ تأثيرها فى أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيرا يجعله يندفع الى الاعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك فى شعره ، ويظهر فى رعشة موسيقية قوية رقيقة فى قوتها ،

متجاوبة ثائرة فى تجاوبها ، تهز نفسك هزا وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك ما رسمه خيال شكسبير ماثلا واضحا ٠٠ وقد بلغ من تأثير هذه الصور فى نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى فى شأن الحياة الانسانية ٠٠ فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة ٠٠ وما يترتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير ما يترتب على غضب الانسان من آثار ٠٠ والطبيعة فى سيرتها العادية تافهة حتى اذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل ٠٠ كذلك الانسان فى سيرته العادية تافه حتى اذا ملكته الشهوة أسرف فى الحب أو فى البغض أو فى الايثار أو فى التشفى والانتقام ٠٠ والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليها ، والانسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها ٠ وكما تسير الغرائز الطبيعية تسير غرائز الانسان ٠٠ ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالا تصويريا فى وصفه وفى احساسه وفى شهواته وفى تفكيره ٠٠ اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لا تستطيع البحار أن تمحو ماخلفت من دم على يديه ٠٠ واقرأ هملت فى ثورته على أمه وفى سائر هذياناته الحكيمة ٠ بل اقرأ قيصرواقرأ فى قيصر خطاب أنطونى اقرأ ما شئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ فى قالب تلك الصور ٠٠

وكما يندفع شكسبير الى تقديس مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور تفكيره ، فهو لا يرى فى غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على أساس من روية ولا تفكير ، وانما يقوم على الغرائز الانسانية البسيطة هى التى توجهه وتصرفه ٠ فالحب عنده لا يحتاج الى تحضير ولا سعى من جانب الرجل لكسب المرأة بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه ٠ اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة ٠ اندفاع شعرى عذب يتغنى فيه كل المحبين باهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كأن كوبيد اذ رمى عنقوسه قاصدا القلب رمى مع القوس الوتر فأخرج هذا الوتر من أعصاب كل من المحبين أنات وآمالاوأحلاما لذيذة ويأسا فاجعا لا يعرف الشعر فى كل الامم شيئا منه مثل ما عرف على لسان شكسبير ٠ استمع الى أنغام أوفليا فى حبها

هملت وتوجعاتها حين اليأس الذى أدى بها الى الموت • واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم • ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها في نفس أوتللو مما لا مثيل له فى أقوى ما تصل اليه موسيقى فاجنر • وخيال شكسبير يصل من ذلك فى بعض الأحايين الى حدود يعجز أقوى خيال تصورها •

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك الناس جميعا فى كل تجارة الحياة • فليس الملك على خلاف الناس جميعا لانه ملك • بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم ما دام بعيدا عن مباشرة شؤون الدولة • وهو فى هذه الشؤون يتأثر بغرائز الانسان وشهواته كما يتأثر أى انسان سواه • والرجل السيء الذى خلقه شكسبير فى شخص ياجو وفى شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الانسانية انقياد الوحش أوتللو والناقم هملت وان كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص الى شخص حسب مزاجه • وهذا الاختلاف هو الذى جعل من أبطال شكسبير أشخاصا ذوى حياة انسانية صحيحة تشعر واياها اذ ترى تمثيل الروايات على المسرح فى حين انك اذ ترى روايات راسين وكورنى مثلا ، وهما من آكابر كتاب فرنسا في القرن السابع عشر ، تحس المؤلف هو الذى يتكلم وترى أفكارا تروح وتجيء على المسرح كل وظيفة الممثل أن يقوم بالقاء الالفاظ التى تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلى •

ولقد أقر النقاد جميعا لشكسبير بهذه الميزة وان رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه اسرافا يجاوز المعقول ، ناسيا أن هؤلاء الاشخاص هم من عصر شكسبير وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد • وكما اتهم بالاسراف ظلما فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها • فقد ذهب بعضهم في وقت من الاوقات الى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات • من ذلك مثلا انك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لا يأمن أن يراه الناس فيها يصيح بأن مياه البحار لا تغسل جريمته • وعلى الرغم من

الحاح لادى مكبث فانه يظل يتحدث عن جريمته ولا يدارى شيئا من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا اليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الانسانية تدفع بالمجرم الى مكان جريمته وتكرهه آكثر الاحايين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث الا واحدا من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الانسانية .

***

هذا بعض ما تأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه . والآن أخشى أن أكون أطلت فى حديث لم أكن أقصد الاطالة فيه وان يكن القول فى شكسبير قصيرا وان طال . فلنجتزىء بما تقدم . وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكتفيا من العيش بطمأنينته ونعمته ، ظل حتى سنة ١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك الى ابنته سوزان غير تارك لزوجه الا قليلا . وفى هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، الى آن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له المجد ما يبقى على الاجيال حتى آخر الزمان .

***


شیلی

- ١ -

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، فى صحو جو جميل ، كان لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى وقوفا فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول • وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه • ويبلغ الهلع والروع أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقى بملابسه على الرمل وبنفسه فى الموج يسبح خلاله حتى يصل الى زورقه « البوليفار » • ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيرا كبيرا ، فما يزال منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة بيده • وتبدأ النار بعد ذلك تخبوا رويدا رويدا تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى • ويحمل ترلونى الحفنة الى الارملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هوولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات وليم شلى ابن الشاعر البكر من زوجه مارى • ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الانكليزى عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملكان على المرء حسه ولبه ويبعثان الى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به انسانا أم طيرا أم حيوانا أم جمادا أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له • ذلك بأن الحياة كانت تسرى

فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قرونا ودهورا بعد موت باعثها • وكذلك كانت فجيعة الشعر فى هذا الشاب الذى خلف الحياة مذ كان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلالا ، وان كانت هذه الذكرى فى غير حاجة الى مزيد من قوة أو جلال • فلقد كتب لكل بيت من شعر برسى بيش شلى منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال •

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته • فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد فى الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفى فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد حلق به جمال الخلق فى سماء الشعر الى ما لم يرتفع اليه معاصر له ، والى ما لم يسبقه اليه أحد فى رأى كثيرين ، وما لم يسبقه اليه غير شكسبير فى رأى آخرين • وكان ارتفاعه هذا ليس قائما على خياله الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى ، بل كان قائما ، فوق ذلك وقبل ذلك ، على قوة فى النفس قل أن يكون لها نظير • قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت أثناء الصبا وازدادت وضوحا فى صدر الشباب الذى كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته • وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة فى ايمان الرجل برأيه وصراحته فيه واعلانه اياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه وان أدى لذلك ثمنا فاحشا أن عده الناس مجنونا وان نفرت منه الجمعية الانجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه وليعيش السنوات الخمس الاخيرة من حياته تحت سماء ايطاليا الدائمة الصفو والابتسام ، والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد فى الهام الشاعر • هذه الشجاعة وهذا الايمان اللذان اعتبرا جنونا هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر الهامه • لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الا بيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعا الحائز لذلك غاية الاعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم اياه • لذلك كان طبيعيا أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعيا أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذروه رمادا •

• وكثيرون ممن عرفوا شلى من كانت تأخذهم الدهشة

لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته ٠ ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينمان عن هذه الفضائل فيه وان كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله ٠ فقد كانت في نظرته وفى تقاطيع وجهه وفى جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة ٠ وكان يضوع منه شـذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على النضال والقسوة فيه ٠ وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التى شدت بأجمل الانغام وتغنت بأحلى الاهازيج ٠ كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله فى الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته فى اعلان ايمانه حتى حكموا عليه بالجنون ٠ فقد ولد فى أسرة نبيلة جمعت الى النبل المال ٠ وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها ونبلها ٠ كان جده السـير بيش شلى بارونا وكان غنيا وكان لا يفتأ يدأب لزيادة ثروته ٠ وكان أبوه تيموذى شلى قاضيا وعضوا فى البرلمان ، وكان قصرهم بفيلد بليس على مقربة من هورشام احدى أعمال سكس محاطا بحدائق وأحراش تدعو الى المتاع بها والطمأنينة لها ٠ وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه ايرادا سنويا ستة آلاف جنيه فى ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألوف تعادلها فى زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعيـة وللحياة فيها لا يعرف الهدوء اليه سبيلا ٠ ولو أن صاحبها أوتى من هبة الشعر ما أوتيه شلى لكان طبيعيا أن يسـلك الطريق التى سلكها بيرون من الانكليز وعمر بن أبى ربيعة من العرب ٠ لكن شلى ضرب بالمال والجاه والدعة عرض الافق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعا ولم يقتض من وصية جده الا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وانطلق فى الحياة هائما يجلى بهـا الفضيلة ويؤدى رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، فى أنغام قدسية من موسيقى السماء ٠ ويؤديها ذاهلا عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجها بكله الى هذا الوجود المحيط به ، مفنيا نفسه فيه كى يفنى الوجود كله فى نفسـه فترده الى العالم وحيا سماويا يختلط بالنفوس جميعا ويتنقل

على الاجيال الى ما شاء الخلد أن تكون للانسانية أجيال تتعاقب .

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ فى حياته وفى تفكيره وفى شعره . جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة فى مثل سن الطفولة التى كان فيها يوم ذهب به أبواه الى مدرسة (سيون هوس) فى برنتفورد ، بالغا فى رقته وظرفه وحلو طبعه . ونشأت هذه الصفات الى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها وترى فى عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذيها ويثيرها . على أن هذه الصفات جعلت منه فى المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم ولهوهم ، مما بعث الى نفسه غضاضة ومضضا . فلما انتقل به أهله الى مدرسة « ايتون » حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها الا بغضا ولمعاملة زملائه التلاميذ فيها الا مقتا . فقد كان ومايزاله من نظام التربية فى هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنا وأقدم فى المدرسة عهدا . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والاهانة من كبيرة . كان يمسح له أحذيته ويأتمر بأمره فى كل حاجة يحلو له أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على اهانة زميل له اياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان ، ولذلك كانوا جميعا يتقنون لعبة (البوكس) ليدافعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبى شلى فلم يذعن له . لم يرض أن يكون خادما ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . ليكن هو نظام المدرسة الذى تابعته وتتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الانسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادما ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم فى ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزلهم ولجأ الى وحدة لم تزدهم له الا احتقارا ، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم . لكن رقته لم تؤد به الى ضعف ابائه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الاقوى ويأتمر

جامره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقارا باحتقار .
وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وان يك عدوانا
متفقا مع هذه الانوثة في تكوينه . عدوان عض بالاسنان
وهبش بالاظافر بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له
وجهه أحيانا . وهو لذلك لم يكن يباديهم العدوان ولا يتحكك
بهم . بل كان يتركهم فى ألعابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو
كتبا محببة اليه مما وضع كتاب الثورة فى فرنسا وأنصارهم
فى انكلترا ومما وضع جماعة اليونان الاقدمين ، ثم ينطلق بها
بين الاحراش والغياض حتى يصل الى حافة النهر حيث يجلس
فينسى نفسه فى المتاع بما فى كتبه وبمشهد هذه الطبيعة
الساحرة حوله وبتأمله اياها والتفكير فيها . ولعل أشد ماتأثر
به من قراءته كتاب وليم جودوين . (العدل السياسى) ..
وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثرا بمبادىء
الثورة الفرنسية ودعوتها الى الحرية المطلقة فى التفكير ،
وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين
وتعاليمهم ومن المبالغة فى ذلك انكار الدين نفسه . على أن
جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد
الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الاصلاح الذى يريد
ادخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية . فكان يرى العقل والمنطق
وحدهما وسيلة الاصلاح ، وكان ينفر أشد النفور ويطعن مر
الطعن على الالتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة .
ودفعه تفكيره الحر هذا الى انكار أكثر القواعد التى تقوم عليها
جمعية عصره . دفعه الى انكار الملك الخاص الا بمقدار حاجة
الشخص له والطعن لذلك على الثروات الواسعة . ودفعه الى
انكار الزواج على انه نظام ، لانه مناط فكرة الملك الخاص .
وانتهى من تفكيره الى وجوب اقامة الجمعية على أساس من العقل
وحده ، والى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة
صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ،
وأضحت العقوبة وصمة فى جبين الانسانية . ولذلك كان
لا يكفيه أن يطلب الغاء عقوبة الاعدام ، بل كان يطلب الغاء
العقوبات جميعا .

فى هذه المبادىء التى وضعها جودوين كثير سبقه اليه روسو

وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها ٠ على أن المبالغة هى التى أدت بهم ليكنروا حتى الدين الطبيعى الذى دعا روسو اليه وليجعلوا الالحاد وسيلتهم الى حرية الفكر ٠ ولعلك ان التمست تفسيرا لهذا وجدته فى تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثا كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الاضمحلال ٠ على أن واحدا من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالالحاد لم يلبث أن عاد الى نوع من الايمان فيه جمال وله جلال ، ودعا اليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منهما ٠ ولقد تأثر شلى فى الايام الاولى من شبابه الى أبعد مدى بكتاب جدوين ورآى فى نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية ما لا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله الى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوبا من القداسة يحول دون التفكير فى معالجته أو ادخال أى اصلاح عليه ٠ أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين ؟ أليست عروش الملوك قدأحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شؤون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك فى قوالب الدين التى يقولون انها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ ٠ لذلك مال شلى الى ناحية الانكار على أنه الوسيلة لكل اصلاح ما دام الانكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية فى التفكير والشعور والالهام والايمان ٠

الى جانب هاته المطالعات التى كانت تثير سخرية أبناء ايتون من شلى كانت طبيعته الحساسة الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراءالطبيعة تدفعه الى دراساتأخرى جعلت زملاءه فى المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلى) ٠ فقد كان يعنى بالسحر والسيمياء ويعتقد فى الجن والاطياف ويرى فى الهواء والماء شياطين وآلهة كانت تحيا فى خياله وتصبح ذات كيان ووجود ، لكثرة مطالعاته فى أساطير اليونانوتاريخهم واتجه عقله متأثرا بهذه الناحية من نواحى طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أنيكشف عن مخبوء قوىالكهرباء والضوء ٠ ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيمائى صغير يرضى طلعته العلمية والسحرية ٠ على أنه كان كلما ازدادت فى هذا

الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له آحد قولا ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة في الحياة وفى الحب وفى الاصلاح الذى أولع هو به بعد الذى أفاد من مطالعاته • بل كانت كل محاولة من جانبه لاقناعهم برأيه مثارة احتكاك بينهم وبينه وسببا للكمه ولطمه •

وزاده تحديهم ايمانا بضرورة اصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها • لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم فى هذا برغم أنه لم يفكرفى كراهيتهم بسبب مايصل اليه من أذاهم وان كان دائمالتفكيرفى اصلاحهم ، برا بالانسانية وعطفا عليها • فلما لم يجد منهم سميعا جعل من اخواته البنات ومن ابنة عمه هاريت جروف تلميذاته فى اجازاته المدرسية يلقى عليهن تعاليمه ويطالعهن برسالته • ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قيادا • وكانت اليزابث كبرى اخواته أشدهن ايمانا به وتقديسا له واعجابا بكل ما يقوله • هو يرى الشر في الملوك والاغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة • اذا فالخير عند هؤلاء والشر فى أولئك • وهو يرى الزواج نظاما تعسا ، وانما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج اذا نظام تعس • وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التى يقصها أمام الفتاتين من باهر الالوان ما يسحرهما عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيه • أليستا يافعتين تتقدمان الى الصبا ويبدأ فى دمهما مسرى رغباته ؟ والحب عنوان هذه الرغبات وطليعتها • وشلى شاب جميل حلو الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا ما لهما ويطير على أجنحة الحب مطارهما • ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى فى حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفا لا تميل اليه نفس الانثى الحريصة على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناية فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين شلى يكفل من بعد اعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الاصلاح فى نظام الاسرةالمقدس على الزمان • وان هو لم يعدل من بعد فهى ما تزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره • يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترنمه وأن

ترى في نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظريات يجمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقا ولها ابتساما • وكانت اليزابث تشعر في بعض الاحايين أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتتركه وابنة عمها وحيدين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام • ثم يعودان متخاصرين يسرى الى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه •

وكانت أيام اجازته المدرسية تنقضي في هذه السعادة الكاملة فهو يدعو الى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حبا خالصا : حب أخت ترى فى أخيها نبوغا تفخر به ويزيدها حبا له ، وحب فتاة تصبو الى ما يدفع الحب اليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليدا ترضاه الجماعة وترعاه • فاذا انقضت الاجازة عاد الى ايتون مترفعا عن الساخرين منه مكبا على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية منتظرا يوما يعود فيه الى تلميذتيه يحدثهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث اليهما عما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة •

وأتم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى أكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه باكسفورد • وفيها تعرف الى شاب من أمثاله اسـمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهما لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا ، وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الانابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها معملا عجيبا • لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة فى كتاب جودوين • وكان من دواعى عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه الى ناحية التأملات الروحية • لكن عجبه هذا لم يمنع اعجابه بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الاحراش فينطلق شلى مرحا يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحما الماء اذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعـد رياضته هذه الى علمه والى تأملاته ، ويعود كذلك الى كتـابة القصص والنشرات • فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصـة

زاستروزى · وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنوانا لها (القديسة ارفينى) يروى فيها شيئا من تفكيراته · ثم هذا هو كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة الى الالحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها فى كل مكان لينتهى بسبب ذلك الى طرده من أكسفورد والى هجره بيت أبيه والى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة ·

وكان في وسعه أن يتوقع ما ترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته · فقد بعث الناشر ستكديل الى مستر تموذى شلى خطابا يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة ارفينى وأن فيها من الأراء ما لا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده · فكتب مستر تموذى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئا من نفقات الطبع والنشر · وانتظر حضور ابنه فى أجازة عيد الميلاد ، فلما حضر ألفى الجو حوله متجهما وألفى الناس من أهل هذه البلاد يتهامسون بالحاده ويزورون عنه وينأون بجانبهم وتحدث اليه أبوه ساعيا أن يقنعه من طريق المناقشة فاذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهانا ، واذا الاب يقنع آخر الامر بأن يقول له فى غضب : انى أومن لانى أومن · على أن غضب مستر تموذى وتهامس الناس وانصرافهم عن شلى لم يؤثر فى نفسه ولا دعاه الى التفكير فى أمرهم · لكنما أثر فى نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت · فهو لم يكن يشك فى عمق ما بينهما من حب عمقا وصل الى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحيـــاة والاشتراك في ورد ما فيها من جمال وسعادة · لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث الى أخته اليزابث ، التى ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها ، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذى جنت من قبل به وجن بها · وعبثا ذهب شلى وقابل هاريت وحاول اقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصا على

المتاع بنعيم الجمعية من ملبس وحلى ورقص ، منها على الافكار التى يسبح هو فى سماواتها متوهما أنه يسعد العالم باقناعه بها . وألفاها أشد حرصا على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لا تدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكيا ثائرا الى صديقه هوج خطابا يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكك كما كانت هى من قبل متأثرة بتعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وان لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلا بل واجبا ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربته ، لأن التعصب هو الذى يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التى تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذا العذر انه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماها ، وأن تستل من بين الجوانح حبا قائما على التفاهم وحسن ادراك الحياة والتوجه الى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى فى الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس الى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها فى أجواء أثيرية تشهد منها بدائع هذا الخلق جميعا متجليا فيما يقع عليه الحس من صور جماله . والحق أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره . هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفعية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة ، بل كان يريده امتزاجا روحيا لاستشفاف ما حولنا من جمال هو مصدر الحياة ، وشركة فى حب هذا الجمال فى متباين صوره ومختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع انسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به فى قصيدته (أبيسيشديون) حيث يقول ما ترجمته : « لم أتصل قط يوما بهذه الطائفة الكبيرة التى يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقا وأن يلقى بالباقين ، وان يك لهم ما لهم من جمال وحكمة ، فى جمود النسيان .. فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب فى أنك كلما شاطرتهما أخذت منهما وأنقصتهما الحقائق التى ينبعث نظره اليها . وهو كالخيال يستمد نوره

من الارض والسماء ومن أعماق أهواء الانسان ومن ألف مرآة وألف ضلع ، ثم يملأ الوجود بالاشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . ويا ضيق قلب ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهى غايتها ، وذهن يقف خلقه عند شيء واحد ، وصورة واحدة ، يبنى لذلك بها قبر خلده » .

اذا فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذى يحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدةوالخلق الواحد ، يبنى لنا قبر خلدنا ، وهو لذلك يفسد أمر الجمـــاعة ويقضى على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من الهام . فعلى الذين أوتوا ما أوتى شلى من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وأن يصلوها من حربهم نارا حامية .

وعاد شلى الى اكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثائر القلب والعقل معتزما أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق للتسامح والحب والمغفرة والجمال . وكان أول ما صنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة الى الالحاد) موقعا اياها باسم غير اسمه وموزعا لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبـه وعقله . فقد بعث بها الى رجال الدين والى المعلمين والىالمشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها فى مكتبة باكسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول ما احتج أحد رجال أهل الدين عليها . وقد افتتح هذه الرسالة بقوله « الحس أساس كل معرفة » ، وسار فيها بلهجة ملتهبة يطعن كل قيود الدين ويحطمها . وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها ، فسألته فأبى أن يجيب فقررت فصله . واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من ادارة اكسفورد ، فتقرر فصله هو أيضا . وترك الصديقان الجامعة عائدين الى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمن مكتفين بها بغرفة إعتبرها شلى مأواهما الاخير .

ولما علم مستر تموذى شلى بفصل ابنه من اكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظا وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمده بمعونة أومدد الا اذا هو رجع الى فيلد بليس وتلقى فيها الدروس

على من يختارهم هو له من الاساتذة • فرد شلى على أبيه يرفض في أدب شروطه • ولم يقنع الاب بهذا الرفض فذهب الى لندن وقابل برسى وصاحبه هوج وحاول اقناعهما بالحجة ليعدل شلى عما كتب في رسالته عن الحاد • ومع ما سلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى في ابنه صخرة لا تتزحزح وألفى فيه اباه وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه عائدا الى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهما • ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن الى أبيه فينتهى الى الاذعان • أو لعله كان أشد حرصا على سمعته منه على فتاه ، وعلى أى الحالين فقد ظل شلى مصرا على رأيه مرتفعا عن أن ينزل عنه مستخفاً بما يتهدده من ضيق ذات اليد ، فما كان المال ليوازى عنده يوما شيئا اذا هو تعارض مع ايمانه برأيه • وبقى معه هوج آياما في لندن ثم غادرها اطاعة لأبيه الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه • وأقام شلى من بعده في العاصمة الانجليزية وحيدا ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد لنضال الجمعية التى اضطرته الى عزلته ، مؤمنا بأنه سينتهى الى الظفر بها والتغلب عليها •

— ٢ —

أقام شلى فى العاصمة الانكليزية وهو أقل تألما لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه • لذلك كان أكثر تفكيرا فى هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته • وفيم عسى يفكر من شؤون العيش وقد كان قانعا بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه • فأما هاته التى عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادىء السامية جميعا ، فهى اللغز الذى يوجب العناية ، وهى الداء الذى يتطلب للبرء منه علاجا حاسما •

وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل اليه يوما أنه غثر فى حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها • هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف اعجابه عند جمالها • بل لئن أعجب بحسنها على انه بعض

صور الجمال الذى زينت به الطبيعة الوجود ، فانما كان حبه منصبا كله على سمو ذهنها لادراك نظرياته ونظريات جدوين فى الحياة ونظامها والتسامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته • وهذا هو ذهنها قد فتر عن ادراك ذلك كله وهبط الى مستوى الاذهان العامة وأصبح شيئا آخر غير جدير بأى حب أو تقدير • فماذا بقى بعد ذلك منها جديرا بالحب أو دافعا للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق انسان فى فتاة جمالها تراه عاشقا الدود الذى يحول اليه جسمها بعد انتقالها الى قبرها ! • وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع الى مراقى ذروة التفكير والذى اتصل من قبل بذهن شلى وروحه ، وقد اندست الى قبره ديدان الاوهام والاباطيل • فلينس شلى هذه العاقة اذا وليسلكها فى سلك البائسات الحقيقيات بعطفه ورحمته •• لكن ! •• لكن هذه الحجة القاطعة التى أرضت عقل شلى لم تطفىء فى قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراما • ولعل مرجع السبب فى هذا الى غدر هاريت لما كان يرجو فى صحبتها من تعاون على محاربة الاوهام المفسدة المندسة الى نفس الجماعة أكثر مما يرجع الى شىء آخر • فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب • ولذلك لم يطل فى قلبه لاعج الهم ولا ظلت جذوته مستعرة الا ريثما وجد فى هاريت أخرى ، لا تقل عن الاولى جمالا ولا ذكاء ، ذلك الاستعداد للسمو معه فى سماوات الجمال والالحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين فى الدعوة اليه •

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن فى مدرسة للبنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تتناول من أختها الكبرى اليزابت رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشىء عن اهمال أبيه اياه • وكان برسى يذهب الى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لانه كان يأبى أن يستأثر بما تبعث به اليه أخته • وما لبث أن تعرف الى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر فى اقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه • وكانت هاريت وستبروك من أكثر الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتا ، وكان

جمالها يضيء مزدانا بشعرها الذهبي وخدودها المتوردة وشبابها الضاحك الى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها فى السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلة النظرة يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروبا ضحوكا . وقد أتقنت القراءة والالقاء فزادت عذوبة صوتها وتغريده حياة وروحا . وعنى أبوها مستر وليم ستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عما كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل فى الفنادق . لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال ببنات النبلاء زميلاتها فى المدرسة ، وكانت بأخوات شلى أشد اتصالا .. فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت اليه وأظهرت أساها لالحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل ايمانها وايمان الجمعية كلها . لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو اليه بهاء وجمالا لا شيء مثلهما أو يقاربهما فى تعاليم الكنيسة ورجال الدين . فالحرية الاثيرية الاجنحة الطائرة فى فضاء طلق تسبح منه فى جمال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذى يحمل اليها شذى الحب وعبقه فيملأ بهما قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج أو من تملك أو توارث ، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف ، هذه صورة جذابة ليس لها قيما حفظت من تعاليم الدين نظير ، ألا أن يكون ذلك فى العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التى نحسها ونلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننعم بها فى الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير فى الموت ، وما لها واكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة الى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الاجهاد ما دام رسول الجمال والحب شلى يضع له الجنة فى يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة فى جمال صورته ، وفى نبله وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الانسانية كلها حبا جما ؟ أو ليس خيرا لها أن ترفعها هذه الأيدى الرقيقة الحنون ، أيدى شلى ، الى جنات الحب ونعيمه ،

من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك الى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة فى لحظة أكثر من تلك التى ترى فيها شلى فى المدرسة أو التى تذهب له فيها ببيته فى شارع بولونيا تحمل اليه ما تعطيها أخته هلن من مال • فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها فى حين كانت هاريت تذهب كل يوم الى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها •

وكان لهاريت أخت متقدمة فى السن الى ما فوق الثلاثين اسمها اليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة • وقد سرها ماعرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها الى مصاف النبلاء • لذلك لم يسؤه يوما مرضت فيه هاريت أن دعت اليزا بشلى الى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها الى ما بعد منتصف الليل • وكان من أثر جلوسه اليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى الى صحتها والى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياما وتدلها • لكن شلى لم يكن ينظر اليها نظرتها اليه • بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن الى الاقتناع بآرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التى دفنت فى قبر الاباطيل ونخر فيها سوس الاوهام • كان يرى فيها ضياء جديدا غير هذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الالحاد فى حين هو الايمان بالعدل والحق والجمال • واذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى ايمانها الذى أوحاه هو اليها • وما أجمله ايمانا يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة •

واطمأنت نفس شلى الى تلميذته والى الحياة وعاوده الرجاء فى صلاح الانسانية كلها ، وان كانت هذه الصلة قد أدت الى فصلها من المدرسة كما فصل هو من اكسفورد من قبل • وزاردته طمأنينة هذه شوقا الى أخته اليزابث أشد من عرف من تلاميذه ايمانا به وحبا له • وفيما كان يفكر فى الطريقة

التي يعود بها الى فيلدبلاس مرخاله الكابتن بلفولد بلندن وتقابل وإياه • وكان الكبتن رجلا كثير التجوال في مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متسامحا لا يطيق أن يفهم كيف يؤدى اختلاف أب وابنه في الرأى الى تعصب الاب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعا • فأخذ شلى معه الى داره بككفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل للابن عيشه • وكانت في ككفلد مربية هي مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى في طمأنينة الى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادىء الحرة ولكنها تؤمن بالله ، فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه « هذا المرض » وقبلت هى أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الامر بسحر جماله وعذوبة روحه أكثر من اقتناعها بآرائه ومبادئه • واستعان الكبتن بلفولد بالدون نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه • فلم يحتج المستر تموذى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود برسى الى أهله وكى يرى أخته اليزابث • وارتضى الأب أن يرتب لابنه مائتى جنيه سنويا لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها في حرية شلى بأية صورة من الصور •

ولقد فاضت السعادة بشلى أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شيء الا اطفاء شوقه لاليزابيث • لكنه لم يلبث الا قليلا بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هى اليزابث التي يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بإيمانه وتدين بمبادئه • وكانت عونه على هاريت جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت الى مثل أوهام العامة وعقائدها • فكيف بها هى الاخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به وبمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجا صالحا ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعا ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الامومة في أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات في أقرب ما يجاورها عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن ؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمو اليه الحب من معان وما يطمئن المحب اليه راضيا من تضحيات في سبيل تحقيق هذه المعاني ؟ ألا تعسا لنظام الجمعية الزائف

القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى •
وعبثا حاول شلى أن يعيد اليزابث الى حظيرته العليا وأن يردها كى تفسر النفس على صور من السمو لا يطيقها الا الموهوبون الذين أرسلتهم الاقدار للرقى بالانسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال ، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم • لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضى ثمنه اذعان بنيها للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها • لقد ذاقت هذا المتاع المادى القريب الى متناول اليد ، وها هى ترى فى الامومة صورا أخرى من المتاع لا سبيل لها الى نيلها الا الاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته • أفتنأى بجانبها عن هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها وتنظر اليها العيون شزرا وليسمى القانون متابعتها عواطف قلبها عهرا ؟ كلا ! ولئن كان شلى أخا صادق الاخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأختة عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل ما فى مادة الحياة من متاع وتؤدى به للامومة واجبها •
ويئس شلى من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله • وجاءته دعوة من هوج كى يذهب اليه فى يورك ، وأخرى من فتاتى وستبروك وثالثة من خاله الكبتن بلفولد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعا ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه الى بلاد الغال على شاطىء البحر ، آملا أن يجد من جمال طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث الى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته • وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولا يدعو الى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفد أكثر وقته يكتبها الى هاريت وستبروك والى مس هتشنر والى هوج والى غير هؤلاء ممن يأنس فيهم ميلا الى الرقى نحو الكمال • ولم يطل به المقام فى عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها الى المدرسة التى فصلت منها ويطلب اليها أن تنكر تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعتزمت أن تنتحر كى لا تلبى

ما يريدونها عليه ، فرد شلي عليها يسكن من روعها وبعث الى أبيها يلومه لما يحاول من اكراه الفتاة عليه • وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضيا من قبل عنه مغضبا عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته ، ثم اذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الاخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنبتهن • ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلي ، فكتبت اليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الانتحار ، ولكنها تريد الفرار معه • فترك الغال حين تسلم رسالتها وذهب الى لندرة كي يحاول اقناع أبيها بأن لاحق له فى اكراه ابنته على غير ما تريد ، آملا أن تبقى الفتاة فى رعاية مستر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى اختار هو لها سبيلها • فلما رأته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كي يفرا معا ليقيما حيث يشاء • وحاول هو أن يردها عن رأيها فكان جوابها : لكنى أحبك ولا صبر لى على بعدك •

هنا وجم شلي • وزاده وجوما اللهجة الصادقة القوية الملتهبة التى اعترفت الفتاة فيها بحبها اياه • لكنه هو لم يحبب منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وانما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! •• على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته • انها تحبه وتريد الفرار معه مزدرية أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه فى نضالها لهدايتها واصلاحها • فلم يستطع فى تداول نفسه بين اهتزازها اعجابا بهذا الاعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، الا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدها بصدق اخلاصه لها وأنه سيكون الى جوارها عند أول نداء يصله منها • وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به ايمان أقسمها أبوها بأن شلي ضلل بها وأنه لا يحبها ، وليعود الى لونها تورده والى وجودها شبابه وفرحه •

وكتب شلي يقص على هوج ما حدث • فأجابه صديقه ناصحا اياه ألا يفر بالفتاة الا أن يتزوجها • واذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاما تعسا ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة

تحبه • فلن تصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى • أما هى فستكون ان لم تتزوجه منظورا اليهـا بعين الازدراء حيث سارت ، مغضوبا عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بألم قد يجنى فى نفسها الطفلة على حبها اياه • فاذا كان شلى لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصـيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلما اياها للتعس والشقاء وتكون التعاليم التى يريد بها سعادة الانسانية مؤدية بالفتـاة الى البؤس والسقوط لغير ذنب الا أنها أحبته ؟ ••

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد فى وعده الفتاة أن يكون الى جانبها لأول ما تدعوه اليها ، لكن الفتاة لم تمهله فى تردده بل بعثت اليه بعد أسبوع من تركه اياها تدعوه اليها • ولم تطل فى نفسه المعركة بين المبـدأ والواجب • فذهب اليها مذعنا للواجب معتزما أن يفر بها وأن يتزوجها تاركا بين يدى القدر ما يؤول اليه أمرهما من بعد •

وغادرا عاصمة انكلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضـيا فى سياحتهما أياما شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى الى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه • لقد فر عصفوره معه طائرا عن العش الابوى حبا له وغراما به ، فلم يك حديثها معه عن الحب الحديث القديم يسموان فيه الى التفكير فى المعانى التى يريد هو أن يحيط الحب بها ، بل أصبح حديث غرامها هى وتدلها ، وأصبح حديثا دلالة الالفاظ فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبلات • ها هى تستيقظ الى جانبه فاذا عيونها اليه معسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى ، واذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تعبث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعدا الى قلبها كى يبعث بها الى فمها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها • وها هى النهار كله تشدو بأغاريد حبها وهواها ، ثم ها هى الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو الى أذنه تردادها لاسمه حين أحلامها بهنائها ونعيمها • لذلك لم يكادا يصلان الى أدنبرج ويختاران فيها مسكنا حتى أتم زواجه منها وملكه اياها • وكذلك قضيا أياما نسى فيها شلى نفسه ورسالته واستسلم

فيها بكله الى المتاع بحب هاريت حبا بعث الى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تضوع بريح الحب هى الاخرى وتزداد على جمالها جمالا وسحرا ٠

ثم آن لشلى أن يعود الى تأملاته وتفكيره ، فاذا هاريت فى شغل عنها بحبها له وعبادتها اياه ٠ فان هى شاركت فيها كانت صدى له يرد اليه تأملاته هو فى صوت عذب وحديث حلو ٠ لذلك ود شلى ، مع اطمئنانه لعزلتهما وسعادته بحبهما ، لو أن صديقه هوج كان معهما ٠ وكأنما كانت الاقدار فى هذا طوع رجائه ٠ فلم تك الا أسابيع بعد عودته الى التأمل والتفكير حتى جاء هوج فى اجازة له يقضيها عند صديقه ٠ وقد بهرته روعة جمال هاريت الى حد كاد معه يمل حديث شلى وبحوثه ونظرياته وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته ٠ فلما آن لهوج أن يعود الى يورك اقترح عليهما أن يذهبا واياه لها ، وسافر ثلاثتهم فلم يجد شلى فى يورك جمالا يغذى روحه الدائمة الظمأ للجمال ٠ وزاده هما أن لم يصله من أبيه المال الذى اتفق على آن يبعث له به فسافر الى ككفلد ليرى خاله الكبتن بلفلد وترك زوجه فى حماية صديقه الى أن يبعث اليها بأختها ٠ ولم يملك هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها ٠ فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه يوما واحدا ، أن حضرت أختها فى اليوم الثانى فحالت بينهما ٠ ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافرا ومعه زوجه وأختها اللتان رأتا فى صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه ٠ وعاد هوج من مكتب المحامى الذى يشتغل فى رعايته فألفى المنزل خلاء وان لم يخبره بالسفر أحد ٠

واختار شلى الذهاب الى منطقة البحيرات اذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج ٠ وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع فى مثل عظمتهما ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهما ٠ ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك فى هذه المنطقة ، وعلم بمجيء شلى اليها ، فقد كتب يدعوه وزوجتــه الى قصره ٠ وهناك عرف صديقا لسوذى ذهب به الى بيت الشاعر الذى كان يحل من نفس شلى أسمى مكانة وأرفعها ٠ لكن شلى لم

يلبث أن تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوذى أبعد ما تكون عن الهام الشعر وان كانت ربة دار مضربا للمثل ، ولما دار بينه وبين سوذى الحديث ، بهت مما سمع . فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول انه متدين وأنه مسيحى ! وهو يحب المال ويطمع فى كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجبا ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر فى مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك انكلترا بأنه خير ملك جلس على عرش . وعلم أن سوذى يقصد من هذا الى أن يخلع عليه الملك ألقابه . اذا فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة الا ما يطفىء ظمأه لنعيم المادة . اذا هو لا يستحق احتراما ولا تقديرا . ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أيا تكون باحترام صاحبها اذا نزل بأخلاقه وبعمله فى الحياة الى المستوى الوضيع الذى لا يطمع الناس منه الا فى كاذب الجاه وفى اكتناز المال .

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته فى رأيه وان لم ير فى ثورته بالدين الا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكى جميعا ثم يعودون الى نوع من الايمان له روعته وجلاله . بل لقد كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى ، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لا تطيق الالحاد وما يصور الالحاد من عدم . ولان نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق . ولانها جميلة فلا معدى لها عن الايمان بالجمال . ومن يدرى أى مصير كان قد أعده القدر لايمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الاقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى ! .

وكان من حظ شلى ألا يفجعه القدر حتى يسرع الى أن يعوض عليه فجيعته . فكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك ، كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من ايمانه بسوذى . فقد عرف اذ ذاك ان وليم جودوين حى يرزق وانه يقيم بلندن وأنه يستطيع أن يراه . لذلك سارع فكتب الى مؤلف (العدل السياسى ، رسالة كلها الاعجاب به والرجاء فى الاستماع له .

على أن شلى كان يومئذ فى شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع الى لندن للحاق بأستاذه الروحى العظيم .

ذلك أن الكاثوليك من أهل ارلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سببها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية • فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للانسان • وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم ولينادى بالمساواة بين النـاس جميعا لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلا على غيره ، وليشن الغارة على رجال الدين وما يدعون اليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من عاية يردها رجال الدين اليهم بدعوة الناس الى تقديس عروشهم والاذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم • ولهذه الغاية وضع نداء مطولا دعا فيه الى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، والى هذه الافكار التى خلفتها الثورة الفرنسية وراءها • لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر الناس من أهل ذلك العصر ، لانها بعـد ما قدمت فداء للحرية والمساواة ما قدمت من تضحيات وبعد ما قضت عليه من رؤوس أطاحتها وثروات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاما لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسته امبراطورا على عرش الجمهورية • وسر اخفاقها فى نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه انها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فمهدت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم الصعداء لانقضاء عهدها • ولو أنها جعلت التسامح وبر الانسان بالانسان وتفاهم الاخ مع أخيه أساسا لها ، لحققت على الارض كل غاياتها وان احتاجت الى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها •ولهذا دعا شلى الى مساواة الكاثوليك بسائر الانكليز فى الحقوق والتكاليف طالبا الى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم فى هذا من غير أن يلجأوا الى عنف أو دماء • واتخذ مقرا لدعوته فى دبلن بيتا أقام فيه مع هاريت واليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادىء السامية • وقد خيل الى بعض أصدقائه أن البوليس لا بد أن سيقبض عليه وأن أهل ارلندا سيلتفون حوله • لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفى زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما • والحق

أن شلى كان مخطئا كالذين رأوا معه أن اخفاق مبادىء الثورة الفرنسية يرجع الى التجائها للعنف والقسـوة • فالثـورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها فى العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادىء التى أعلن أهلها انهم يريدون تحقيقها • بل هى بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحتة • وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم اذا تحققت المبادىء التى أعلنوها • فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقت اليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون فى الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادىء التى كان الناس من قبل يقرأونها فتلذهم قراءتها من غير أن يؤمنوا بها • وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس ايمانا بفائدة المبادىء التى أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف فى سبيلها ، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة فى أيديهم وتخلصـا ممن قد ينازعهم اياها • فهم اذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء • لكنهم وحدهم هم الذين يوصلون هذه المبادىء السامية الى ذهن الجماهير ، لان الجماهير لا تفهم الا اللغة الدموية الوضيعة : لغة القسوة والارهـاب والبطش • ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا الى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولغ واياه فى الدم ولا يتهج لهذا المنظر الذى يحرك فيه حيوانيته الاولى ثم لثبت قليل أو كثير من هذه المبادىء فى ذاكرته يستظهرها بعد رجوعه الى وعيه •• أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الانسان للانسان وتسامح الانسان مع انسان ، فلا مطمع له فى آكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته ••

وعبر شلى وصاحبته البحر من جديد الى بلاد الغال يائسا من أولئك الكاثوليك الذين لا يفهمون •• وظـل يتنقل فى مختلف بلاد الشواطىء البحرية زمنا لم يهتد فيه الى مسكن يسر به ، فغادرها متجولا فى نواح مختلفة حتى اهتدى فى لنموث الى منزل أعجبه فأقام به : أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدها عنده جمالا عزلتها وقلة اختلاف

الناس اليها ·· وفى هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته فجاءت لتقيم معه ·· والحق أنه كان بحاجة الى صديق روحى يبادله الرأى ويدرك واياه صور الحياة ·· فلقد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة ·· وكان هو يومئذ فى بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة فى ديوانه (بالملكة ماب) أودعها ما وصل اليه من فلسفة ·· وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه ·· فلمــا حاول أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر ولا تفهم الفلسفة ·· لذلك طار سرورا من مجيء مس هتشنر وطلب اليها أن تزيد فى تهذيب زوجته ·· ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تباينا ينتهى الى الافتراق والى انتحار هاريت غرقا ويدس الى حياة شلى هما ناصبا يظهر أثره من بعد فى كثير من شعره ··

- ٣ -

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنموث ومعه زوجه هاريت وستبروك وأختها اليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢ ·· ومن لنموث وجه شــــلى الى القاضى لورد اللنبرا خطابا كان أعظم أثرا وأشد وقعا من كل ما حاوله فى ارلندا ، وكان ما يزال ينبيء عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر ·· فقد حكم هذا القاضى على مستر ايتون بالسجن والتعذيب ، لانه نشر كتابا يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل ·· ولم يدر بخلد أحد أن يجعل من هذا الحكم موضع طعن ان كانت للاحكام فى كل أمة قداستها ·· على أن كتابا فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى حكم ظلما عن أن يكرسوا الـكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لاعادة النظر فى الدعوى ·· وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه بالاعدام وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعا لحملة انتهت باعادة النظر فى الحكم وباعادة شرف كالا اليه بعد اعدامه وازالة ما ترتب على الحكم الاول من

نتائج بالنسبة لابنائه وورائه ·· والحكم على مستر ايتون أجل فى نظر شلى خطرا ، فهو لا يقتصر على ادانة انســان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حتى الرأى الى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الاقدار ليداوموا السير بالانسانية الى ناحية الكمال ·· لذلك وجه الى اللورد اللنبرا خطـابه القوى مفتتحا اياه بقوله : « مولاى ـ آما وللمركز الذى دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هى لذلك أعظم خطرا ·· ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى أنك لم تحكم خطأ بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص ··· وصحيح أن القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية اياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر ايتون ·· لـكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الامة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الاعقاب عليك اذا كان للاعقــاب أن تعنى بذكر شأنك » ·· ثم ينطلق شلى مندفعا : ـ « لكن بأى حق تعاقب مستر ايتون ؟ ليس هناك الا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هى التى يمكن الادراع بها لاهانة الانسانية والعدالة هذه الاهانة المزرية ·· فأى رجل أضر به مســتر ايتون ؟ وأى جريمة ارتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس ، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى اتهم بأنه لم يرتكب مايشين شرف انسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم واخاء الانسان للانسان والوسيلة الوحيدة لاســتعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب والاضطهاد لم يجرا على الانسانية الا ويلات كانت أداتها أمثال لورد اللنبرا ·· ويسوق هــذه الحجج فى لهجة قوية تظهر فى مثل قوله :

« ان نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه الا اضطراب المنطق فيه ·· فالمطابع مثقلة بما يسمى (تهكما فيما أظن) الادلة المثبتة للمسيحية ، وهى كتب حافلة بالمطاعن والاكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من

الادراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الاباطيل الشائعة المنفرة ، مبادىء أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه المقدمات المفترضة ، بنى شاهقة المنطق .. ولكن اذا كان الاساس واهيا فما الحاجه الى مهندس ينبئنا بتداعى البناء ؟ واذا كانت حقيقة المسيحية لانزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ واذا كان الموجود من الكتب كافيا لاثباتها فما وجه الحاجة الى جدل جـديد ؟ واذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ واذا كانت المسيحية ينقصها علم أعمق وبحث أشق لاثبات حقيقتها ففيم اللجوء الى القهر فيما لا يسع سوى العقل الانسانى أن يؤديه على وجه يرضيه ؟ » ..

وهو يعود بمثل هذه اللهجة ، ناعيا على التعصب داعيا الى التسامح ، محاولا التدليل على أن الاضطهـــاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره الا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به ، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى لغير شىء الا لتعذيب اليهود اياه ، وذلك حين يقول :

« من الحقائق التى لا سبيل الى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجا متعصبين ، أو لو أن عـزيمة بونتياس بيليت كانت كصراحته ، لما استطاع الدين المسيحى أن يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد .. فيا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك ! تعلم على الاقل التواضع ، واعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف كذلك على الاقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلا لكرهك .. أمن أجل أن انسانا مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة ، يكون حقيقا بعقاب التعذيب والسجن ؟ واذا سلمنا بجواز الاضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على ســلم المجتمع وسلامه ؟ وأى وحشية وفظيعة دموية لا تنقلب مباحة ؟ ولكنى أسأل : أليس ذلك الرجل الذى ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لانه اما أن يثبت زيفها

وعقمها (وبذلك يقضى على ما هو زائف ولا طائل تحته) واما أن يتيح لانصارها الفرصة لاثبات صدقها وجمالها ٠٠ وهذا — على التحقيق — لا يمكن أن يكون جريمة ٠٠ فان من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجرىء فى كبرى المسائل التى ترجع فى مرد أمرها الى طبيعتها الاخلاقية ، يكون أجـــدر بتشجيع المشترعين المتنورين منه بأن يحيق به انتقامهم ٠٠ وأحب ان تعلم يا سيدى اللورد أن أغلال الحديد لا تقيد ولا تخضع روح الفضيلة ٠٠ وانها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها ، وترتفع حرة جريئة الى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم فى القضاء ، ولكنى أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعا فى ظل نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق » ٠

ويصل الى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك فى عبارة بالغة غاية الابداع ، حين يقول :

« سقى سقراط السم لانه اجترأ أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ما عتمت أثينا بعـــد موته بقليل أن تبين لها ما فى حكمها عليه من الظلم فانتصفت له من متهمه « ميلتاس » ورفعت سقراط الى قريب من مراتب الارباب ٠٠

« وصلب المسيح لانه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ما هو أدنى الى الانسانية وأشبه بالخير ٠ ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءه ساحته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى الا الفعلة لشنعاء ، فسرح براباس القاتل الخائن وقـــدم المسيح الوديع المصلح قربانا لاله اليهود الدموى ، ثم مضى الزمن وتبدلت الاحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء — على عادتهم من التطرف — يرون فى صلب المسيح خارقة ٠ ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها — وما أكثرها فى عصور الجهالة — لثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة فى النفوس مع العصـــور والتقت بأحـــلام أفلاطـون ومنطق ارسططاليس ، واكتسبت القوة والسعة والامتداد حتى تقررت

ألوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك في صحتها جريمة وعارا ..

« والمسيحية الآن هى الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع في ذلك فعليه أن يوطن نفسه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدمونه في اعتبار الرأى العام .. الا اذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الاحوال ما يكفل له أن ترفعه الاجيال المقبلة الى مصاف الآلهة وان تضطهد الناس باسمه وفي سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه الى الفوز بعبادة العالم » ..

ثم يختتم خطابه بقوله :

« ان الزمن ليقترب مسرعا حين يعيش المسلم واليهودى والمسيحى والمؤمن والملحد معا فى جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الاحسان والحب الاخوى .. وأرجو لمولاى اللورد أن يرى ذلك اليوم » ..

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لاتمام قصيدته « الملكة ماب » .. لكن حياة لنمث بدأت تثقله وتدفع الملال الى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت الى نفس زوجته من مس هتشنر فرأت فيها منافسا لها دس الهم الى حياتها .. وربما وجد شلى الوسيلة الى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته فى تفكيره والهامه ، بما يزيده تحليقا فى سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان .. وزاد فى همه أن رأى هاريت لا تتابعه فى جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسموا على سموه ، بل وقفت تتلفت الى ما حولها تبتغى من متاع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه .. حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء فى وحدة الريف واعتزم العود الى لندن علّه يجد فى الجماعة مسليا عن هذه العواطف الوضيعة التى بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفى مقابلة جدوين منشطا لروحه فى توثبها للعمل على سعادة بنى الانسان اخوته .. واختار فى العاصمة فندقا صغيرا أقام وصحبه فيه .. ثم ذهب مع زوجته فى يوم من أكتوبر يزور أستاذه فى موعد حدده .. وكان جدوين يقيم

بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتبا للاطفال ويبيعها ذلك أن مكانته التى بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسى) والتى دعا فيها الى هـــدم نظم الزواج والاسرة والنزوع الى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم ٠ فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب قسيسا خرج على زمرته وأطلق العنان لفكره ٠٠ لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من مارى ولستنكرافت التى ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها مارى وابنة أخرى من زواجها الاول هى فانى املاى ٠٠ ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدى اعجابها به . وكانت ذات ابنة من زواج أول هى جين كليرمون ٠٠ وقد اجتمعت الاسرة فى انتظار زيارة شـــلى وزوجته لم يتخلف منها الا مارى ، التى تزوجها شلى من بعد ، لانها كانت على سفر فى ايقوسيا ٠٠ وقد ربطت هذه المقابلة الاولى بين شلى وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط ٠٠ على أن فانى وجين ، وكانتا فتاتين ذواتى جمال وعلم ، ما لبثتا أن رأتا شلى واستمعتا اليه حتى أظهرتا غاية الاعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه ومتوقد خياله ، وحتى شعرت كل واحدة منهما فى أعماق نفسها بميل نحوه دفعها الى التقرب منه والعمل لاجتذابه ٠٠ وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر ٠

ومن طريق أسرة جدوين تعرف الى أسرة نيوتن ٠٠ وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية الى حد ملك لب شلى ٠٠ وكيف لا تملك لبه ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فطبقت فى كثير من نظم حياتها مبادىء الانسانية التى أعلنتها الثورة ٠ لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم بقدر ما تسمح به ظروف الحياة ٠٠ ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ما داموا فى الدار ٠٠ وقد قارضوا شلى اعجابا باعجاب وتقدير بتقدير وشاركتهم فى ذلك أخت لمسز نيوتن تدعى مدام دبوانفيل تربت هى وابنتها فى فرنسا ونشأت على تعاليمها ٠٠ وكذلك استطاع أن يجد فى المدينة منجاة من تلك الوحدة التى أثقلت كاهله فى لنموث والتى اضطرته الى هجر تلك البقاع الجميلة

المحبوبة التى ألهمته خطابه الى لورد اللنبرا والتى كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكة ماب) ..

وزاده أنسا الى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته ، أو أختها أليز على وجه أصح ، أن تجعل عيش مسز هتشنر معهم محالا حتى لتطلب هى مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى اياها من انقطاعها عن المدرسة التى كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت أنها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة .. ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التى كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها برا بها وتقديرا لتبعته فى دعوتها .. وعلى أثر سفرها عاد الى جو الاسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابنسامتها وعادت هى الى تغريدها .. ومع ما كانت تلمع اليه من فتيات جدوين من ميلها الى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية ، ومع ما كن يتهامسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التى تسعده وتلهمه ، فقد ابتهج هو بعودها اليه وفتح لها من جديد كل قلبه .. ثم زاده بها شغفا أنها حملت ، فود أن يستعيد واياها ألوان متاعهما السابق .. لذلك هجر العاصمة ومعهما اليزا وسافرا الى أرلندة والى الغال لايبتغيان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة الى جديد ، وانما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتزيد فى أنغامه الثائرة من حنايا جـــوانحهما ما يزيدهما صبابة وهوى .. وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين الى حبهما . على أن ما دعا فى الحقيقة الى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى جعلته يحس فى أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئا قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل قلبيهما وأن يبتر صلة حبهما .. وكان رجاؤه أن يعود الى ملك عصفوره اذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن أحدا ينازعه فيه . وكان رجاء هاريت أن تعود الى ملك صاحبها وأن تنزل به الى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتهـــا ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يســتمتع غيرهم بها ....

وتقدم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم الى العاصمة

مرة أخرى ‥ ووضعت بنتا أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصا على صلاتها بالجمعية وعلى محاكاتها اياها ‥ وفيم كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة اذا كانت لا تطمع فى حياة صريباتها النبيلات ، بل فى حياة العامة من الناس ؟ ولعلها كانت لا تغلو فى هذا الميل لو أن أختها أليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها الى أن ذاك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى ‥ واضطر هو آخر الامر الى الاذعان لمشيئتها ، فاقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة الى بائع الحرائر وأخرى الى صـــانعة القبعات ‥ ثم ألحت عليه وعاونتها اليزا فى الحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه ‥ واضطرته ، فكتب له يرجو زوال ما بينهما من قطيعة ‥ لكن هذا السعى أخفق أن أصر مستر تموذى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود الى حمى الجمعية ونظامها ‥ وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب أليزا وقلب هاريت وزاد فيما بين الرجل وزوجه من شـــقة خلف كان لا يزيدها تعاقب الايام الا انفراجا ‥ وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة فى مقامه بين أسرتى جدوين ونيوتن وفى السفر وحده الى حيث تقيم مدام دبوانفيل مع ابنتها كورنليا ترنر يقضى فى ضيافتهما أيام وأسابيع ‥ بل لقد أقام عندهما فى احدى الضيافات شهرين متتابعين تاركا هاريت وأختهـــا ينعمان بما تشاء أهواؤهما التى هوت الى مستوى أهواء الجماعة الانسانية ‥ وكان اعجابه بكورنليا يزداد يوما فيوما حتى انقلب حبا وحتى فكر فى اختيارها رفيقة حياته ‥

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها فى التفكير وتطبيقها صور تفكيرها فى طعامها وفى حدود المنزل ، أسرة ارستقراطية النزعات فى علاقاتها المدنية ٠ فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى فى مخالطة كورنليا ‥ وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك الســيدات الرشـيقات البالغـــات من عـــذوبة النفس وسمو الادراك ما لم يكن يجده الا فى جماعة جدوين ٠ على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو الى حد عن تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعهـــا

كل ما دار فى نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه أثناء مطالعته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التى ظن ان القدر ألقى عليه ابلاغها للناس ·· وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديدا حين قابلوا الملكة ماب بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا فى الشعر نجم شلى ·· بل لقد ظلت حتى اليوم منظورا اليها على أنها دون ما أبدع من معجزات الشعر بكثير ··

ولقد كان واجدا عن فتور الجمهور بازاء قصيدته عزاء لو أنه وجد فى هاريت أو فى غيرها عطفا عليه يقوى عزمه ويشد قلبه ·· لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت فى اهماله حتى لم تأب الظهور فى الجمعية مستندة الى ذراع الضابط رايان الذى جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها اليزا معرفة قديمة ·· وقد حاول شلى أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار الى أعمق مما انحدرت اليه ، لكنه ألفى هذا القلب تحجر فلم تعد تهزه بازائه عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضى ولا رجاء فى المستقبل ··

وانه لفى يأسه من هذه الناحية اذأقبل عليه جدوين يستعينه فى متاعب مالية أعانه شلى من قبل فى مثلها ·· وطار شلى الى داره راجيا أن يجد فى صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة حبهما ·· ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هذه المرة ·· فقد طالما تحدث اليه جودوين عن ابنته مارى وذكائها ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم ، ولطالما وصفتها له جين وفانى على أن ذكائها يعدل جمالها ·· وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع الى الجمال الذكاء والى عُذوبة الروح سمو النفس والى طهارة لضمير عظمة لقلب ، والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة فى ثناياه ·· ما كان أشد حاجته الى أن يهب كل ما فى قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التى يضىء وجهها بكل جمال الوجود ·· وألفى مارى ساعة وصل الى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست بين جين وفانى ألتين قدمتاه اليها وذكرتاه بحديثهما عنها كما ذكرتا له أنهما حدثتا أختهما عنه ·· ولم

تك الا سويعة تحدثت اليه مارى فيها حتى سحرته عن نفسه فجعلته يرى فى جمالها وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسوية مجتمعة الى النشاط والطلعة الذهنية التى تميز الشبان ، اجتماعا كان يراه دائما صورة الكمال الانسانى فى خير ما يستطيع الفن أن يكون ٠٠ والحق أن مارى كانت ذكية الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوى عليـــه جوانحها من أنفة ، وتنم عيونها الكستنائية اللون عن شيء من الالم لم يعرف شلى مصدره الا بعد ما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها ، وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم الى هـــذا القدس تنطوى صفائحه على أقدس حب امتلأ قلبها به منذ طفولتها ٠٠ وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلا كل يوم دأبهما الصلاة له : ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر الدهر ٠٠

ولما علم جدوين بما بين ابنته وشلى حال بينهما ومنعه عن بيته ، فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفرار واياها ، وأيقن أن لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها لا تعنى بغير ماله ٠٠ فدعا بها من الريف الى لندرة وأخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتبا يكفيها عيشها ٠٠ لكن العصفور رقيق التكوين فلم يحتمل الصدمة فمرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه اليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح فى ملك غيره ٠٠

- ٤ -

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الانجليز بعـــد ذهاب نابليون الى البا ، فلما أبلت هاريت من مرضها اتفق شـــلى ومارى وصحبتهما جين أن كانت تشعر بميل نحو شلى فسافروا الى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن ٠٠ على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطىء بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها الى بيت صغير على شواطىء التمس أقام ثلاثتهم فيه ٠٠ ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلى لمارى من غير زواج

بينهما لمقاطعة جدوين اياه وتحريمه بيته عليه وعلى اللتين فرتا معه ، وذلك رغم ما كان لشلى على جدوين من فضل امداده بالمال فى ظروف كان هو وزوجه هاريت فى أشد الحاجه اليه .
بل لعل هذا الاسراف من جانب شلى كان أهم ما غير قلب عصفوره عليه ودفعها الى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفا غير لائق بالنفوس السامية ٠٠ ولم يكن جدوين وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومـدام دبواتفيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنلياترنر ٠٠ ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هوج وصديق استحدثه فى الزمن الاخير يدعى بيكوك ٠٠

على أن عزلة شلى مع خليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهابا دفعهما الى ما يشبه الجنون ٠٠ فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن اليها عزمه على الاتصال بمارى جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا فى قلبها ، حتى صارت لا ترى عليها من بأس فى التحبب الى أمثال الضابط رايان ، تلهبه الغيرة من جديد ٠٠ وأى شىء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ انها لترى حقا لها أن تعذب من تحب وأن تصد عنه وأن تلاطف غيره ٠٠ ولترى واجبا على محبها أن يرى فى صدها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والاذعان لكل أمرها والتماس الصـــفح عنه ٠٠ بل لترى واجبا كذلك عليه أن يقتضيها اسعاده أو تهوين الحياة عليه ٠٠ فان فعل فهو أثر لا قلب له والانانية ملء نفسه ٠٠ أما ان رأى فى امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة الغادرة هى أحط من حملت أرض أو أظلت سماء ٠٠ وكذلك كانت مارى فى رأى هاريت ٠٠ وقد ازدادت لها بغضا وغن شلى أعراضا حين بعث اليها يستضيفها عنـده فى بيت مارى ٠٠ أف لهما من منافقين ! ٠ وأف لهذه اللعينة مارى التى لا تراها هاريت تعدلها رشاقة ولا جمالا ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح ، بل هى التى لم تؤت أى حظ من الجمال ، بل التى تستحق أن تسحق وأن تعض بالاسنان وتقطع بالاظافر ٠

ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقمن منه هاريت شر انتقام ..

كان ذلك شأن هاريت .. أما فانى املاى فقد جعلت تحس فى بيت جدوين وحدة ممضة مؤذية ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها فى البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذلر ما كان يفيض به ازاء شلى من حب واخلاص .. فها هو شلى قد اختار مارى عليها .. وهذه جين قد وجدت فى نفسها الجرأة لتصحبهما .. أما هى فلم يبق لها فى الحياة الا أشباح اليأس تحيط بها ، وان تتمنى لشلى فى نفس الوقت الهناء والسعادة .. وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله مارى جدوين عليها الا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته .. ألم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هى الاخرى تاركة اياها يتيمة الابوين لا معين لها فى الحياة الا بر هذا الرجل الذى استبقاها عنده رأفة بها واشفاقا عليها ! فاذا فضل عليها شلى أختها من أمها فليس ذلك أقسى ما أصابها القدر .. وبحسبها أن تظل على اخلاصها له ورثائها لما وصل اليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف .. بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائنوه الى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتعقبون شلى يريدون القاء القبض عليه كى يفى بديونه أو يسجن .. ولولا يقظة فانى واخطارها شلى بالامر وفراره من متعقبيه لذهبوا به الى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء ..

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه الى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود فى نعومة أظافره ، فأنهدت قواه واندس المرض الى صدره واظلمت الدنيا فى عينيه ورأى شبح الموت مقبلا يبتلعه . كم كان من قبل سعيدا مع هاريت! وكم كان سعيدا بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة اليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف مارى ! وهذا هو يرى نفسه معها منفردا يتحاشاه الناس ويفرون منه فرارا ثم لا

يكون له عنهم من بديل الا مرض قاتل ٠٠ يا لليأس ! أيتها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة ! أحق أنك جميعا قد تخليت عن هذا الرجل لغير شيء الا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حكمت عليه بالموت لان جمعية النفاق والوهم الباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما في ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن ٠٠ فهذه ماري ما تزال تحنو عليه وتبعث اليه من دفء قلبها المملوء حبا ما يستبقي خيط الرجاء معلقا فوق هاوية اليأس ٠٠

لكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته ٠٠ بل لم يمنعه من أن يحدق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية الهاما ساميا أوحى اليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى : « الاستور أو روح الوحدة » ٠٠ وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف في الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذى يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحي الهدى ولا مبعث لسمو الالهام ٠٠ « وأدت به خطاه طائعة مسبح أفكاره السامية الى زيارة ما خلفت الايام الخالية من خرائب الآثار ٠٠ فزار أثينا وتير وبعلبك والبطيح الذى كان مقاما لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والاهرام الخالدة ومنفيس وطيبة وكل ماتخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمد والصور العجيبة لما هو أعظم من الانسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال ، وحيث يعلق السلف أفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة اياه ــ هناك ، أمهل الخطا مستذكرا العالم في صباه محدقا طوال النهار المحرق بهذه الصور الصامتة ٠٠ وما كان القمر اذ يملأ الصالات العجيبة بظلاله المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره ٠٠ بل ظل يحدق ويحدق حتى أضاء خلال عقله نور كأنه هو الالهام القوى جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس » وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكبلها غراما ٠٠ لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال بلاد العرب والعجم والهند ، جوابا ربوع الارض وأقطارها باحثا عن الحقيقة ، حتى اذا كان يوما مستلقيا خلال

غابة تظله رأى أثناء نومه « صبية مبرقعة تجلس الى جانبه وتتحدث فى أنغام مهوبة خفيفة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع اليه فى هداة تفكيره ٠٠ وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها ٠٠ كذلك كانت الآمال الكبرى فى الحرية المقدسة وما الى هذه الآمال من أفكار هى أعز الافكار اليه ٠٠ ثم كان الشعر أن كان هو شاعرا » ٠٠ وتجلت الصبية له فى خلال هذه الآمال والافكار والمنى فاذا جمال شخصها عدل جمال نفسها ٠٠ واندفع محاولا ضمها اليه والامساك بها ، لكنهـا تراجعت ثم ابتلعتها ظلم النوم ٠٠ ولم تجده محاولته اعادتها الا أن أيقظته الهزة فاذا القمر ينحدر الى المغيب وتباشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل ٠٠ « اذن ضاعت هذه الصورة الجميلة ، وضاعت الى الابد فى تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الكالح ! أفيؤدى باب الموت الاسود الى جنتك العجيبة أيها النوم ؟ » وينطلق الشـــاعر مفكرا أثناء تطوافه مستذكرا صورة النوم الجميله ملفيا جمالها فى كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال ٠٠ وفيما كان عند اليونان بصر بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه الى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد الى الموت سبيله ٠ وتدافع الموج والزورق حتى دفع به الى جبال القوقاز فى نهر تحيط به أحراش وغابات وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يقرب له الامل فى النجاة بالموت والعود الى صـــورته الجميلة التى أراه النوم اياها ٠٠ وفى هذه السياحة يشدو شلى متغنيا ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب الى نفس بطلة الشاعر المشوق للموت حتى يصل ببطله الى غايته ٠٠ وفى ســياحة الزورق هذه بين موج البحر ولجة النهر يصف شلى فى النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره الى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكبا نهير الميز ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده الى انكلترا وحين هده المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة التى تهز القلب والفؤاد ـ مناظر شواطىء التمس كانت وما تزال مثال جمال قل فى الجمال نظيره ٠٠

قال شلى مقدما قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست

خالية من العظة لابناء الحياة الحقيقيين .. ذلك أن الشاعر فى عزلته وانحصار خواطره فى نفسه ، تثأر منه شياطين عاطفة فاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ واياه الى الدمار السريع. على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى الى شك المعرفة ، ولا تضللهم خرافة باهرة ، ولا يحبون شيئا على هذه الارض ولا يتعلقون بأمل وراءها ، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لايسرون بأفراح الانسان ولايأسون لاحزانه ـ هؤلاء وأمثالهم يبوءون بلعنة عادلة : يذوون لانه ما من أحد يشاطرهم الاحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الاحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من ابناء الدنيا ولا المحسنين الى بلادهم ـ وأحلق بالذين لا يحبون بنى جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيئوا لارواحهم فى كهولتهم قبرا موحشا » ..

وانك لترى كل تلك المعانى التى اوردتها المقدمة متجلية فى أبهى صورها وأعظمها جلالا وروعة فى هذه القصيدة التى لا تزيد على سبعمائة وعشرين بيتا ، والتى تمثل حياة النفس لعباد الوحدة وعشاق الطبيعة ، مصورة فى ألحان سماوية الموسيقى الى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسيك فيها جمال الانغام بديع الصور ، ولينسيك ابداع الصـــور روائع التفكير ، ولتنسيك روعة الفكرة جمال النغم .. ثم تتزاوج الانغام والصور والافكار فيلد تزواجها صورة الشاعر الشاب شلى فى وحدته المنقطعة وأمله المتهدم فى الحياة ومواجهته الموت فى رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الالم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهـــذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة ..

وفيما كان شلى فى هذه الحال توفى جده السير بيش وآل اليه بالوصية ايراد سنوى يبلغ ستة آلاف من الجنيهات .. ولو أنه لم يكن فى شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر الى مزيد من المال على أنه جريمة تدفع الى النقص وتزرى بالفضيلة لناصب أباه الخصومة حتى يصل الى كل ما أوصى به جده .. لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا اذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شر دائنيه .. لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك

الميراث كله ألف جنيه في السنة تكفيه وتكفى مارى ، وتكفى من يلوذون به من صحبه ٠٠ وردت اليه هذه الطمأنينة المادية شيئا من سكينة النفس كان فى أشد الحاجة اليه ليتغلب على مرضه ٠٠ وتغلب بالفعل عليه ٠٠ وبدأ فى سماء المجد يتألق له نجم إن لم يكن ساطعا سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه ٠٠ على أن الاقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوما من الايام ٠٠ فقد بدأت مارى على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معهما فى البيت وزاد لهيب هذه الغيرة ضراما حين حملت فلم تستطيع ملازمة مما جعل جين تصحبه في جولاته وتعود واياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلى الى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود ٠٠ وما عسى أن يصنع شلى بازاء غيرة مارى الا أن يطأطىء لارادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل فى حال عصبية تثير معها كل مناقشة اياها لمشيئة تعلنها دموعا تذرى وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الاخلاص ، والذى لا يرى مع ذلك فى الحب معنى الاثرة الذى يذكي الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من فى الوجود فى لاحساس والعاطفة ٠٠ واضطرت جين لمغادرة المنزل وفى نفسها من الحب لشلى ما بغض مارى اليها ودفعها للتفكير فى الانتقام لانفتها الجريحة ٠ ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام ٠٠ فاذا كانت مارى تعتز بخليلها شلى وما له من نبل ومجد ومال فلتتخذ هى خليلا لها أعرق من شلى نبلا وأعظم مجدا وأكثر مالا ٠٠ ولكين هذا فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يعبأ بالعفة ولا الخليل لورد بيرون نفسه ٠٠ ولم تلق فى تحقيق غايتها عنتا . بطهر القلب ٠٠ على أن مارى استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها ٠

وظلت مارى فى سكينتها حتى وضعت طفلا لثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة ٠٠ ولم يطل بها الحزن أن حملت مرة أخرى وأن وضعت غلاما أسمته باسم أبيها وليم ٠٠ لكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثانى ورغم شعورها بكل ما فى الامومة من مزيد فى الحياة ، جعلت تحس وحدتهما وسط

الجمعية الانكليزية تزداد وطأتها ثقلا عليها وعلى برسى ٠٠ وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث الى نفسه نوعا من لذع الضمير طالما حاول اخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائبا على تعذيبه ٠٠ فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه ٠٠ وكان اجماعهم منعقدا على أن البائسة لم تأت اثما ولم تجن ذنبا ، وانما الذنب والاتم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريرة ما دام قد ضمن لها ولابنائها منه رزقها ٠٠ وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا الى استحالة المقام بانكلترا وضرورة هجرها الى حيث لا يعلم قصتهما أحد ٠٠ واذ كانت هواجس مارى قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبهما وصـلتهما منذ نشأتهما ، فقد سمعا اليها حين اقترحت عليهما السـفر الى سويسرا للمقام عند ضفاف الليمان على مقربة من جنيف ٠٠ وزاد مارى اطمئنانا الى اقتراح صاحبه سرها أن علمت انما حملها عليه اعتزام بيرون أن يسافر الى تلك الناحية فرارا من اتهام الجمعية الانكليزية اياه بمعاشرة أخته اوجستا ٠٠ فلن تعود بين جين وشلى اذا أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلى من مارى ٠٠ واذا فليسافر ثلاثتهم الى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك مقدم النبيل العظيم ٠٠

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقه ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت جين مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون ٠٠ على أن أمتن ما قوى صلتها كان الوسط الذى يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشـعرى البديع الذى يوحى الى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعرا ويزيدها للجمال قدرا ٠٠ فقد نزلا جنيف ابان بشائر الربيع مختتم ابريل ومفتتح مايو حين تبدأ حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو أوراق الشجر فى زهو خضرتهـا الجديدة ما يزال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة ، وحين الثلوج ما تزال تغطى قمم الجبال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس ، من الاحمر القانى الى الاحمر المتورد ،

بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور ، وحين تنعكس سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئا ، فاذا دفعت الريح الموج متلاطما فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموج متلاطمة هي الاخرى. قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدا فيه خير مسرح لخيالهما المتوقد وان شعرا في شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعارا كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلا ٠٠ وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ، بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها فى العالم ٠٠ حب المرأة أنانى أثر غايته الحيازة والملك والمذلة والاسترقاق ٠٠ فكل شركة فيه تنتهى الى الجريمة عهرا كانت الجريمة أو غيرة تنتهى الى القتل وما هو شر منه ٠٠ أما حب الجمال في غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه وينادي به ويدعو الى الشركة فيه ٠٠ هو تقديس الجمال فى كل مظاهره والاشتراك فى هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سموا وجلالا ٠٠ وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلى وبيرون فى تقديسه من أثر فى شعرهما ٠٠ على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما ، لان كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر فى نظرته الى الحياة تمام الاختلاف ٠٠ فقد كان عقل شلى وقلبه وشخصه وكل وجوده شعرا خالصا ٠٠ كان لا يعرف شهوات الانسانية ، ولا يخلط بنفسه وضيع عواطفها ، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموسا محسوسا ، وكان يصور كل مايقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه فى أنغام من الشعر والنثر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها ٠٠ وانك لتعجب حين رجوعك الى ديوان شعره والى رسائله وكتبه ، اذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى فى يقظته وفى نومه ، قد اكتسى ثوب الجمال ، واذ ترى هذا الجمال مصورا أنغاما قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعر هى أم موسيقى أم رسم وتصوير ٠٠ أما بيرون فكان شاعرا ، ولكنه كان انسانا له كل شهوات الانسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشدو به فى شعره ساميا بهذه الشهوات نفسها الى سماء الشعر ملبسا اياها شفوف الجمال ٠٠ وكان بيرون مشغوفا بالمجـــد

تتسلط عليه شهوته الى حد أشفق معه عليه شلى كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله الى مراتب الانسانية الوضيعة رغم ما أنعمت به آلهة الشعر عليه من جمال فى النفس وسمو فى الفكر .. وكم حاول ان ينزع به الى عير ما تدفعه اليه شهواته وأن يجذبه الى ناحيته ، ناسيا آن ليس فى مقدور انسان تحوير طبعه .. ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل يراسله طمعا فى انقاذه من براثن شهواته التى كانت فى نفس الوقت مصدر كل وحيه والهامه ..

وبرغم ما امتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين الى بلده .. وكان حنينه قويا منذ أول مغادرته شواطئها وان كانت هى التى ألجأته الى هجرها والفرار منها . قال فى خطاب بعث به الى صديقه بيكوك عن تحنانه : « انكم لتعيشون على شواطىء نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطى الغابات سفوحها .. ثم انكم لتعيشون فى بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر ، وتطمئنون فيه الى ما يقع فى ملككم .. وما بقيت هنالك ممالك وما بقيت اعتبارات الاثرة التى تنطوى فكرة المملكة عليها ، فأنا واثق من آن انكلترا أكثر الممالك حرية وتهذيبا .. ولعلك كنت حكيما فى اختيار طريق حياتك .. على أنى ان عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على ما رأيت من ممالك أخرى .. فلدينا لا ريب من الخبيث والطيب ، وكثير يزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال .. لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . وما دام الانسان على ما هو عليه فان التجربة التى جربها لن تدعوه لاحتقار الامة التى ولد فيها .. بل على العكس من ذلك هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشد شعورا بجماله .. فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا وقرانا ومزارعنا التى لا شبيه لها عند غيرنا ــ كل هذه روابط لن تنبت ولن تتحطم أو أصبح ولا ادراك عندى ولا حس لى »

وربما فات شلى أن يذكر شيئا آخر يربطه بانكلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة .. ذلك هو هاريت عصفوره وابنته يانت وابن هاريت المنسوب اليه وان أنكر هو أبوته .. فلقد كان كثير التفكير أثناء وجوده على شواطىء ليمان فى هاته التى ترك

وان كان يعلم أنها فى طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه ابوها عليها من رزق مثله ٠٠ وكان يعلم من اخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت الى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه فى ذلك بعض التبعة ، ويحاول اقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه ٠٠ ولئن كانت هاريت قد أساءت اليه أفليست بانت ابنته ويجرى فى عروقها الدم الذى يجرى فى عروقه ٠٠ لكنه لم يكن يستطع الاسراع الى مغادرة سويسرا وماري متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنيها بصاحبها وبها ٠٠ لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقا جعلا من رياضتهما عليه فوق لج الليمان مستوحى لالهامها ٠ وكثيرا ما كانت تصحبهما ماري وجين ، فتتغنى هذه الاخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالا ومايزيد الهام الشاعرين روعة وقوة ٠٠

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانا فى انكلترا وآن لها وهم فى سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجرا ٠ من يومئذ بغضت الى نفس بيرون ٠٠ وازداد لها بغضا حين تحدث اليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها ٠٠ وكان بيرون فى هذا الظرف غليظ القلب مغاليا فى التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعا واعتبارهن متاعا لشهوة الرجال . الى حد لم تطقه الذكية الانوف ماري. ولم تطق معه البقاء على مقربة من هـــذا الذى يدعوه الناس نبيلا فاذا نبله قحة ، ويحسبونه شاعر الحب فاذا حبه شهوة واذا شعره غلظة كبد. حتى على ابنته ٠٠ واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه فى المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى فى فكرة العود الى الوطن ، فكتب الى بيكوك يطلب اليه أن يستأجر له دارا (فيلا) على شواطىء النهر وبين الاحراش والغياض ٠

وغادروا الى لندن وفى عزم شلى أن يستقر بوطنه طـــول حياته ، غير ذاكر أن لا سلطان لاحد من الناس على مصيره ، جاهلا ما خبأته الاقدار له من فواجع تقض مضجعه وتضطره الى المقام بقية أيامه بعيدا عن انكلترا ٠٠ فقد كانت فانى املاى

تراسلهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث الى حياتها البائسة خيطا من نور الامل فى رؤيتهم يوما من الايام فلما عادوا الى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين ، مع وجود أمها فى بيت جودين ترهق فانى وتعذبها فى حين كانت فانى أحق بهذا اليسار الى جانب أختها مارى ، ولما كانت لا تستطيع الالتجاء الى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقا يجعلها لا تطيق المقام الى جنب مارى ، بعثت اليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : « اننى ذاهبة الى مكان أرجو ألا أعود منه أبدا » .. فسارع شـــلى بالسفر الى برستول ومنها عرف الى أين سافرت الفتاة ، وذهب الى الفندق الذى نزلت به فألفاها انتحـــرت بالسم وتركت خطابا تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها ..

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه .. وزاده اهتزازا ما ذكرته مسز جدوين من أن فانى انتحرت لفرط حبها اياه حبا ضاع كل أمل فى أن يجد ما يحييه .. وعن هزة قلبه يعبر فى أبيات ستة يقول فيها : « أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى أن القلب الكسير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات .. ايه أيها البؤس ! ان هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » .. على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحادث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة .. ذلك أن هاريت بلغ من انخراطها فى اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقـــدم بها الحمل وأن شعرت اذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطهـــا أمام شلى ، ويرفع مارى فى نظر الجمهور عليها ، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام .. فذهبت الى نهر ألقت بنفسها فيه ، فماتت منتحرة هى الاخرى .. ولم يكن بين انتحارها وانتحار فانى الا أيام .. وذكرت التيس خبر انتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها .. وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلى أن يطيق : دعارة فحمل فانتحار .. يا للعار ! ويا بؤس أبنائه بأم تلك خاتمتها ! ويا بؤسه هو بحياة تسير مسرعة الذبول الى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته اليزابث ويغتبط للتخلص

من مس هتشنر وتتجافاه كرنليانرتر وتنتحر بســـببه فاني املاى وهاريت وستبروك ٠٠ ترى ألم يأن لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه ثائرته ؟

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه في ذلك آبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويخشى أن ينشىء أبناءه عليها ٠٠ وانما خفف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة الى من اختاره شلى مطمئنا على اقامته فى تربية أبنائه ٠٠

وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على مارى وأن تعود لذلك صلته بجماعة جدوين ٠٠ وكان العوز قد ألح بمؤلف (العدل السياسى) حتى صار عالة على شلى هو أيضا وحتى جعله يعود الى الاستدانة من جديد ٠٠ ولم يكن جدوين وزوجه وحدهما هما اللذان كفل شلى فى ذلك الظرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان له خمسة أولاد من زوجه ماريان ، وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى فى كتابتها خيرا واصـــلاحا للجماعة ٠٠ مع ذلك كله ٠٠ مع الاضطراب المالى ومع انتحار فانى وهاريت فى أيام ، ومع منازعة وستبروك اياه فى حضانة أبنائه ، فقد تحصن شلى بارادته الصلب وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب ٠٠ وشلى ، على رقتهوايثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر ، كان ذا عزيمة لاتعرف المستحيل ولا تقف فى سبيلها عقبة من العقبات ٠٠ تحصن بهذه الارادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التى مرت من نفسه ٠٠ فابتاع بيتا ظريفا فى مارلو أقام فيه مع مارى وابنه وابنته منها مع جين وابنتها من بيرون ٠٠ على أن الارادة الصلب والعزمة القــوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهر المستحيل ما دامت الروح التى تحركهما وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس اليها مايضعفها ويزعزع ركنها ٠ فأما أن ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الارادة وعلى العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام ٠٠ وقد هدت الحوادث التى مرت بشلى من روحـــه فتضعضعت وضعفت ٠٠ وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتمسا الوحدة كى يخفى عن الناس ضعفه ٠٠ والانوف المعتز بقوة

نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه الناس ضعيفا مثلهم خاضعا لتصاريف القدر خضوعهم ·· فى هذه الساعات التى ينال المرض فيها من جسم ذلك الانوف أو تنال الحوادث من نفسه ، ويود لو أن الانسانية كلها ولو أن أقرب الناس اليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه ·· وجعل شلى يذهب الى جزر التمس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطرا من ليله يشاهد الطيور السابحة فى الماء والمحلقة فى الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق فى عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه ·· ولم يكن فى استمداده هذه القوة يرجو غير ما كان يطمع فيه أول صباه من تحقيق سعادة بنى الانسان ·· فقد زادته الحوادث التى كرت عليه ايمانا بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع الى هذه الكوارث المتوالية وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب ·· وكانت قصيدته الكبرى الثانية ـ ثورة الاسلام ـ والتى كان يصقل فيها من قبل أن تفجأه الحوادث تباعا ، قد فرغ منها أو كاد ·· فوضع قصيدة أخرى أسماها « لاون ستنا » ضمنها مسارح أفكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته ·· وضعها أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضيا نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والالم وكل أسباب الضعف الانسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود ··

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرد اليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها ·· بل لقد جنت هذه الهموم على صحته وردت اليه مرض صدره وجعلته يفكر جادا فى وسيلة البرء من علته ·· كتب الى جودوين فى ٧ ديسمبر خطابا يصف له فيه حاله جاء فيه : « وكانت صحتى أسوأ بالفعل ·· فان مشاعرى لتهبط أحيانا الى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحيانا أخرى الى حد غير طبيعى من التهيج ·· ولاقتصر على مثل مما يعذبنى خاصا ببصرى ·· فان أوراق الحشيش وغصون الاشجار البعيدة لتبدوا لناظرى بدقة مكرسكوبية ·· فاذا أقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقيا ـ فى كثير من الاحايين ـ

ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهنى مؤلم أشد الالم ٠٠ ذلك أمري الا في قليل ٠٠ أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين تلك الساعات التى أستطيع المقاومة فيها ٠٠ على أن ذلك كله ليس سبب تفكيرى في السفر الى ايطاليا ، طمعا فى أن تنقذنى منه ٠٠ كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية ٠٠ ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثرا لوجودها الا أن هذا دلنى على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى ٠٠ ومن مصلحتى أن يكون هذا المرض بطبعه بطيئا وان الانسان اذا عنى بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه فى جو دافىء ٠٠ فاذا عاد هذا المرض على صورة واضحة أصبح واجبا على أن أسارع بالذهاب الى ايطاليا ٠٠ على أنا انما نسافر حين يصبح السفر واجبا محتوما ، لمخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك ٠٠ وأحسبنى فى غنى عن أن أذكرك ، فضلا عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التى تترتب على موتى ٠٠ وانما يحملنى على هذه الصراحة القاسية ما بدا لى من أنك لم تدرك حقيقة مقصدى ٠٠ فليست الصحة وانما هى الحياة التى أبحث عنها فى ايطاليا ٠٠ ولست أبحث عنها من أجلى ، فأنا أشعر بالقدرة على نفسى ازاء مثل هذا الضعف ، وانما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنفعة وأمنا وكرامة ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله الى النقيض اذا أنا مت »

وما يشير اليه شلى من سوء فهم جدوين اياه هو تأويل جدوين سفر صهره الى ايطاليا بأنه الفرار من معونته المالية ٠ على أن مارى لم تبرح انكلترا حتى كفلت لابيها عن طريق شلى رزقا يقيه فى شيخوخته ، كما كانت طوال اقامتهم فى ايطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمنا للروايات التى تكتبها لمعونته ، وبدفع شلى ليزيد فى هذه المعونة جهده ٠٠ ولعل احساسها بحاجة شلى الى السفر كانت أشد من احساسه هو فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها اليه ٠٠ على أنهم ظلوا ينظمون شئونهم ويبيعون دارهم فى مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون

اقتضاءه منهم حتى استطاعوا اعداد أهبتهم للسفر ، وسافروا في منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها الى البحيرات الايطالية آملين أن يجد شلى فى شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد اليه سكينة نفسه ..

- ٥ -

غادر شلى انكلترا قاصدا ايطاليا فى مارس سنة ١٨١٨ . غادرها مستصحبا زوجه ماري وابنيهما وليم وكلارا ، ومستصحبا كذلك جين كليرمون التى كانت تطمع فى أن ترى ابنتها من بيرون فتروى غلة قلبها الظمىء شوقا لها .. ومروا بليون فجبال الالب حتى نزلوا ميلانو .. ومن هناك قصدوا البحيرات الايطالية التى كانت منذ القدم مغني الشعراء وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعا .. وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات (وبكومو) منها بنوع خاص ، حتى لرأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالا غير بحيرات كلارني الارلندية .. على أنهم لم يجدوا فى منطقة البحيرات الدار التى تعجبهم فعادوا الى ميلانو حيث وجد شلى فى كنيستها ملجأ دين .. وكنيسة ميلانو جديرة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلها هيبة تبعث الى النفس طمأنينة الاسلام للحياة ولما بعد الحياة .. ولكن أمر شلى لم يقف عند حد الاعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها ، بل ان نفسه التى كانت جموحا ثائرة على كل شىء قد وجدت فى آلام الحياة وصدماتها المتوالية ما هد من ثورتها وماأراها ضعف الانسان وعجزه التام أمام الوجود فعاد الى نوع من الايمان بعظمة الوجود ممثلا فى الكنائس والبيع وبيوت الله جميعا ، وجعل يرى فيه ملجأ يحتمى به الانسان من ضعفه ، بل يستريح فيه الى هذا الضعف ويطمئن له

ومن ميلانو كتب شلى الى بيرون فى شأن اللجرا منبئا اياه بوجود أمها معهم .. ورد عليه معلنا ، فى صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجها ولن يسمح أن تعرف اليه طريقا .. ورأى شلى أن لا وسيلة لتخفيف ولو بعض الشىء من حدة

صاحبه الا ان يذهب اليه فى البندقيه ٠٠ وغادر مارى وابنيهما مستصحبا جين التى ألحت فى السفر رجاء أن ترى ابنتهـا ولو خلسة ومن غير ان يعلم بيرون بوجـودها ٠٠ وتقابل الشاعران وتحادثا فى الامر حديثا انتهى بيرون معه الى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى فى دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدهما مطلب عنده أو رجاء فيه ٠٠ وأعجب شلى بالمدينة السابحة غرقى فى لجة الادرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهوائها العطر بأريج الحب المتغنى والها فترات من الليل بأناشيده ، الناهب فى المتاع به الى حدود الاستغفار عنه باقامة الكنائس الكثيرة علها تسع ذنوب أهل المدينة جميعا وعل آحداها تكون أقرب من الاخرى الى دعاء مستجاب ٠٠

ورأى بعد الذى عرضه بيرون وبعد ذهابه وجين وابنتها الى است أن المكاتبة بينه وبين مارى أصبحت لا تكفى فدعاها لتقيم معهما ٠٠ ومن هناك عرفت مارى البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها ٠٠ على أنها ازدادت من بعد بهـذه الرمال تعلقا أن خلفت وراءها ذكرى فاجعة هى الاولى فى حياتها فان شهرى « است » ما كادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه الى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت ٠٠ وبرغم ما بذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعا سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب الى البندقية لاستشارة طبيب رجوا أن يكون أكثر من طبيب است حذقا ومهارة ٠٠ لكنهم ما لبثوا أن وصلوا هناك حتى كانت الفتاة فى آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل أن يحاول طبيبها الحيلولة بينهـا وبين بارئها ٠ وذهب شلى وذهبت مارى يحملان الجسم الصغير الى الليدو فدفناه فى رماله المختلطة صفرتها البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ما تحوى من أجداث ورموس يخلع عليها جلالها جمالا ٠

وجرحت أمومة مارى جرحها الاول وعرف الحزن الى قلبها السبيل ٠٠ لكنها سرعان ما تعزت وظهرت بمظهر القوى الذى لا يتزعزع حين تمر به أعاصير القدر ٠٠ وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها ٠٠ فنحن فى الحياة نؤدى للحياة واجبهـا

بالبر بالانسان والعطف عليه ، وبتخليد النوع والقيام على تربيته ، وبنشر العرفان والنور والعمل لتمتلىء بها القلوب جميعا ، وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها.
وما أحسنا أداء هذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفر عنها عملنا .. وكل شر لا سلطان لنا عليه ولا قوة لنا فى دفعه لا موضع للأسى من أجله ..
وثكل الوالد ولده بعض ما لا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر فليكن موقفنا منه موقف اباء وكرامة لا موقف ضعف وحزن ..
ليكن موقفنا منه موقفنا من خصم يناوئنا ليبتز مالنا ، أفترانا اذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه ؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبرا وأنفة ؟ كذلك ظهرت مارى أنوفا أم يعرف الهم ولا عرفت الدموع الى عينيها ولا الى قلبها سبيلا .
ولعل هذه التعاليم لم تكن وحدها مصدر شجاعتها ومبعث قوتها .. فهذا ولدها وليم ما يزال فى أحضانها فلها فيه عزاء .. وها هى ما تزال ، كما لا يزال شلى ، فى مقتبل العمر وقوة الشباب ، فما يزال لهما فى المستقبل وأبنائه وبناته وسعادته رجاء .. وكلارا التى فقدت كانت ما تزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلا موضع للاسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلا أمام الحزن الا بمقدار ..
فأما شلى فقد احتمل موت طفلته فى سكينة ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر واياهم من البندقية .. وكان يشعر بأن المقام فى شمال ايطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث الى نفسه السكينة والى صدره دوام ما يرجو له من عافية وبرء ، فساروا منحدرين جنوبا حتى وصلوا الى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة ما زاده تقديرا لشعر فرجيل ولشعر دانت .. وبعد اقامة قصيرة بها قصدوا الى نابولى .
وهناك على شاطىء خليجها الساحر البديع ألقى شلى عصا تسياره آملا أن يجد فيها الطمأنينة التى تيسر له الانخراط فى خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى فى قصيدة (الملكة ماب) بمبادىء الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الانسان بازاء قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة وقد قيدته كلها بقيودها فاذا هو

يحاول من طريق ارادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعا موقف المتحكم فيها المسير لها ، ثم اذا محاولته تنتهى به الى الفوز على القوى جميعا بفضيلة صدق العزيمة والايمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها والحب الطاهر الذى لا يعرف الاثرة ، وانما يشترك فيه الانسان وسائر الكون اجلالا وتقديسا لما أبدعت الحياة فى الكون من جمال وجلال ·· وهو يضع قصيدته هذه فى صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الاولمب وعلى رأسهم جوبتر ومن حولهم الارض والمحيط وعذاراه والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه و (بروموتيه) بازاء ذلك كان يجاهده وينتصر عليه ·· وهو هنا يخالف الاسطورة القديمة التى تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها العقل والحيلة ·· وان كثيرين من النقاد ليذهبون الى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلى على كل ما سواها ويعتبرونها الدرة من شعره ·· فأما آخرون فيذهبون الى تفضيل رواية (سنسى) اذ يرتفعون بها الى مقام روايات شكسبير ·· على أن (بروموتيه) قد نسجت على غير طراز (سنسى) ·· فبينا هذه الاخيرة ، على ما سترى ، تعبر عن حب آثم يقع فى الحياة بين أب وابنته اذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض مسرحها ·· وهى فى هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وان اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها فى بعض المواضع ولم تصل الى رفعتها فى مواضع أخرى ··

ولم يطل بشلى المقام فى نابولى ·· وكأنما كانت يد القدر التى قست به حين مقامه على أرض وطنه فجعلته لا يطيل المكث فوقها الا ليعود الى الارتحال عنها محملا هموما وآلاما ما تزال لم يهدأ ثائرها عليه برغم ما كان يبدع فى الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى الا بعضها ·· فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا فى طريقهم عائدين الى روما ·· وخيل الى مارى أن الامر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواليتين ولن يسلبها هناءة الامومة وهى ، بعد حب الصبا ، كل ما للمرأة

فى الحياة من عزاء ·· وعاد الطبيب الطفل فنصح اليهم أن ينتقلوا به شمالا ·· لكنهم لم يكادوا يتهيأوا للرحيـل حتى أصابت الطفل نوبة من الدوسنطاريا ألزمتهم المكث الى جانبه ·· وبقى شلى ستين ساعة ممسكا بيد الطفل خائفا أن يفر الطفل منه الى غيابات الابد ·· ذلك بأنه كان طفلا ذكيا عطوفا رقيقا ، وكان جميل الصورة الى حد سحر النسوة الايطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبى المتموج تموج الحرير الناعم نعومته ·· ثم انه كان قد أصبح وحيد مارى بعد موت أخته كلارا ، فالفجيعة فيه تحيي من قلبها الفجيعة الاولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كآبة وهم يصيب شلى منهما حظ غير قليل ·· وكان لشلى فى القدر رجاء التصرف بحكمته ازاء طفل لم يقترف ذنبا يجزى من أجله بالموت بله المرض وآلامه وتباريحه ·· لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا فى هذا العالم من خير وشر ليس فى نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لا مفر لنا من الاذعان له والسير فى خطواته ·· لذلك لم يعبأ بما كان مرجوا عند شلى ومات الطفل ودفن فى مقابر الانكليز بروما ، هذه المقابر التى أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن ما بقى من رفاته سيرقد هناك الى جانب جثمان طفله ··

مات وليم فانهارت عند مارى كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلادا · سكب الهم ظلمته فى قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفى نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لبها الى قفار الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة كخاتمة أختها فانى املاى · وعبثا حاول شلى تعزيتها بالترويح عنها بأن انتقل بهـــا الى الريف من روما وأسكنها قصرا جميلا يحيط به الزهر والشجر وما بهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين ؟! انها كلها تنقلب سوادا وتزيده على همه هما وأسى · بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شماتة بنا فى مصابنا · وعبثا حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها الى صوابها والى تعاليمه · فالصواب والتعاليم والمنطق

والعقل أوهام وصور ما تلبث أن تطير وتتلاشى اذا هي ارتطمت بقسوة الواقع · وأي واقع أشد قسوة من الموت ، بل من الثكل ، ثكل الام لوحيدها ولامومتها ؟ وشـلى وحبه وحنـانه أصبح هو الآخر مملولا ، ثم نسى كما نسى غيره أن لم يبق من الوجود أمام ماري الا حزنها مجسما في ذلك القبر الذى آوت اليه رفات وليم · فاذا ناداها شلي قائلا : « أين ذهبت يا عزيزتي ماري تاركة اياى وحيدا في هذا العالم المقفر ؟ ان صـــورتك الساحرة ما تزال هنا الى جانبي ، لكنك أنت قد قررت عن طريق الوحدة المؤدى الى صوامع الحزن المظلم » · اذا ناداها شلي هذا النداء لم تزد على أن تمعن في التماس صوامع الحزن تاركة اياه يبحث عن عزائه في خير دواء لكل ألم وخير بلسم لأبلغ جرح : في العمل المتصل لأداء ما ألقت عليه الاقدار رســالته كي يشدو بها الى العالم أنغاما سماوية · وأعانته سماء ايطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه · على أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة بماري لم يلبث أن دس اليها من عنده بلسم عزاء · فقد حملت وأحست في أحشائها روح الامومة من جديد لكنها كانت في خشية من معابثة القدر فظلت على عبوسها وان زالت سحابة الهم التى كانت تظلها مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء · ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلي الى فلورنسا لتكون في رعاية طبيب صالح ، ثم ان في جو فلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من رجاء ، فيها أجمل ما في ايطاليا من الآثار ، ويضوع ريحها بأسماء دانتي ، وسافانارولا ، وجيـــوتو ، ودوناتلو · لذلك كانت للزوجين خير موئل · فيها وجد شلي خير ما يلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه في كل مظاهر الفن والطبيعة ، وفيها وجدت ماري مزيدا في رجائها · حتى اذا وضعت وألفت نفسها أما من جديد في ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم ، ودعت الوليد برسي فلورنس شلي ، اعترافا بفضل زوجها في تقريتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت اليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها ·

ولما جاء الشتاء وقرس البرد في المدينة « الجميلة » نصـح الطبيب الى شلي بالسفر الى بيزا ، فذهب بأهله اليها وأقاموا

بها • وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوا به ، وانضم اليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسـمه الاستاذ المبجل باكشياني • وكان قسيسا قليل الدين وأستاذا لا يعلم الناس شيئا وزير نساء ومحبا خدمة معارفه • وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه • وقد قص هذا الشـيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته • ذلك أن للكونت ففياني ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الاولى ذهب بفتاتيه الى الدير ، أن كانت زوجة شديدة الغيرة منهما لفرط جمالهما • وكان جمال كبراهما (امليا) رائعا روعة جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حـادا وخيالها متوقدا بما يبعث الى كل نفس أشد الاعجاب بهـا والاشفاق عليها • وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجهما من شاء من غير أن يمهر الأب عنهما شيئا • فلما سمع شلى بالقصة هاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة • أليس هو يريد الكمال مجسما فى أنثى لها جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك • وها هى مارى جدوين وان كانت ما تزال من خـير النسوة اللواتى عرف الا أنهـا أصبحت أمامه جسما محسوسا ذا حدود وأبعاد وذكاء متجليا له كل ما فيه من حكمة وشعر ، فلم يبق اذن فيها المجهول الذى يبحث هو دائبا فى الكشف عنه والوصول اليه ! فلنر اذن ما عسى أن تكون امليا فيفياني هذه من صور الكمال وما عسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة •

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه الى الدير • وما لبثت الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلى وذهب به : قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينةوانسجاما وتزيد بهاء ما فيه من جمال فى كل انثناء ونتوء • ومشية هى للعين أنغام تموج فى النفس والخيال فتهزهما وتبهرهما • وشـعر فاحم السواد ملقى على أكتافها ليزيد وجهها البديع القسـمات وضوحا وبهرا • وعيون دعجاء تفيض نظراتها حبا شهيا فية

قوة تلتهم من تقع عليه التهاما · وجبين مصقول ، وأنف أقنى ، وثغر عذب وشفاه تحدث عن فيض الرغبة · والى هذه الانوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيصه من حدق عيونهـا السوداء قويا ملتهبا · وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظـرة عصفورا فى قفص ، فتوجهت اليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! ·· انك لتموت اكتئابا ! فما أشد اشفاقى عليك ! · ألا كم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك الى بلاد مجهولة ! أنت مثلى محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك · أواه ! لوكنت أستطيع انقاذك ! » · وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغـة الايطالية بموسيقاها سحرا وعذوبة · وزادت أنشودتها للطائر للطائرالحبيس بهر شلى فاستأذنها أن يعود اليها وأن يستصحب زوجته وأختها ، فرضيت طيبة النفس ·

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت مارى اعجابها بجمال امليا وتقدير شلى اياه على انه الجمال الاسمى · أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابسشديون) يصف فيها الجمال والحب ويدعو فيها املى لتذهب واياه الى قصر قديم فى جزيرة أبدعها خياله بين جزر الادرياتيك ليعيشا هناك وليسحبها بين جمـال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها فى عزلة لا ينغصها عليهم أحد من الانس · وانك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذى ذكرنا · لكنك تراه أثيريا يطير بك فى عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره وبديع خياله وينساب الى روحك عذبا سلسبيلا فلاتزداد الا تعلقا به وتقديرا اياه · وفى ختام القصيدة يقول : « اذهبى أيتها الابيات الضعيفة فاسجدى عند قدمى سيدتك وقولى : اننى سيدة عبدك فمرى أمرك فينا وفيه · ثم تنادين مع اخواتكن من سائر شعرى واسجعن متغنيات : « عذب فى الحب حتى ألمه · لكن جزاءه فى هذا العالم قدسى لأنه ان لم ينلنا فى الحياة تبعنا الى ما وراء قبرنا » · وأنت لا ريب ستحيين فى حين أكون أنا قد أويت الى هناك · فاسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابلى ماريتا وفانا وبريموس وسائر صواحبك ، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضا وأن يبارك بعضهن بعضا ، ودعى

فيما وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكونى ضيفى ــ فانما أنا ضيف الحب » .

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت اميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط فى يده ولم يطق اتمام قصيدته . فها هى رمز الحب فى طهارته قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جميعا ممن عرف ها هى سقطت الى مستوى القطيع تاركة اياه يعض البنان ندما على خطئه فى أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وحيه والهامه .

وفيما كان شلى فى هيامه بأميليا كان بيرون يتخطى خليلة الى خليلة حتى انتهى الى أجمـل نســوة البندقيـة وتدعى جيوكشولا . وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلا نبيلا . لكن صلة المرأة بخليل لم تكن فى البندقية يومئذ أمرا ادا ، حتى فى نظر زوجها . على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج الى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقيـة ويقيم عندها . فلما تلكأ بعثت اليه تخبره بأنها مريضة فطار اليها وأقام الى جانبها . وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا الى بولونيا . فلما علمت جين كليرمون بأمر ابنتها بعثت الى بيرون تستعطفه أن يبعث بها اليها . فرد عليها ردا غليظا يقول لها فيه : ان التربية فى بيت شلى على أســـاس النباتية فى الحياة المادية والالحاد فى الحياة الروحية مما لاتطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . فجن جنونها وبعثت اليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى فى خطاب بعث به اليه يقول فيه : ان جين أم ، وانه وان لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها الا أنه يرجوه أن ينظر اليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن بيرون رأى فى هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى . وكان قد وصله خطاب من قنصل انكلترا فى البندقية يقول له فيه : ان الناس يتهمون شلى بمعاشرة جين ، وان مربية كانت فى خدمة شلى تذيع أن جين حملت منه فأجهضها فى نابولى حين كانت زوجه فى روما . وتنفيذا لانتقامه بعث بيرون يستدعى شلى الى رافنا « لأمور خطيرة » . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلى وجعله يكتب الى زوجه

يطلب اليها أن تكذب ما تذيع خادمهم الخؤون · وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت ماري وان لم يقم بأي مجهود لدى القنصل في البندقية يبدد به ما علق بذهنه من أكاذيب ·

وزار شلي اللجرا في الدير الذي بعث بها اليه أبوها ، في بانيوكافالو ، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها · ومع نحولها بدت وسط الاطفال قريناتها في جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرقى منبتا ، غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحبتها بل تعرض حياتها للخطر ·

وكانت خليلة بيرون معتزمة السفر الى سويسرا · فطلب بيرون الى صديقه أن يكتب اليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب الى فلورنسا أو الى بيزا ، وفاضت السعادة بشلي حين علم أنها قبلت الذهاب الى بيزا للمقام على مقربة منهم · ولم يبد بيرون اعتراضا أن كانت جين قد تركت تلك المدينة الى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم في احدى مدارسها · ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التي يقيم فيها شلي حتى أبدت جمعيتها كل الاعجاب به ، فصار قصره مقصد المتأنقين في حين بقي شلي الرسول الروحي لأهل المدينة جميعا · وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلي · فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام في الصباح الى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود الى سهره ثم الى مكتبه ليدبج قصائده التي استوقفت أنظار انكلترا كلها فكانت تلتهما التهاما · وكان حقا على شلي أن يحتمل هذه الحياة زمنـــا كان يعتبر صاحبه فيه ضيفا عليه في بيزا · لكنه ما لبث أن رأى ماري تريد الانخراط في سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد الى حياته البسيطة الاولى · ووجد في أسرة انكليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته · تلك أسرة وليمز وزوجه جين · وكانت جين وليمز رشيقة رقيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها · وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلي أن يذهب وهو معها في أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء · وزاده اعجابا بجين وليمز ما دأبت عليه ماري من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة في الحياة ما يجد غيرها ·

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الاشقياء يدعى ترلونى وقد دعوه الى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلى ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص • فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيرا • وجاء ترلونى فانضم الى عصبتهم • ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلى برباط وثيق طلب اليه أن يبنى له ولوليمز يختا يشتركان فيه ، واختار لنفسه ولوليمز بيتا على الشاطىء قريبا من بيزا فأقاما فيه ومعهما مارى وجين ، وجعل شلى من يخته مركبا لرياضته ولخيالاته وأحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآلهة الشعر تواتيه بإلهامها من كل جانب •

والحق أن آلهة الشعر لم تضن على شلى بألهامها يوما من الايام • لكنها كانت فى هذه الفترة وخلال الاربع السنوات والنصف التى أقامها فى ايطاليا أشد بالهامها فيضا ، حتى ليدهش الانسان حين يرجع الى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكى كله ، ثم ليزداد دهشة اذا رجع الى رسائله والى نثره فرآها لا تقل عن الهامه الشعرى غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملكا لعالم الجمال وكل ما حوى • ولو أنك أردت أن تحصى ما كتب من شعر فى هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الابيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب عن هذا عند قصائده الكبرى كقصيدة (بروموتيه) و «سنسى» و (ساحرة الاطلس) و (ابشديون) و (قناع الفوضى) و (أدونايس) و (هلاس) وغيرها وغيرها ، بل ان له لمقطوعات يقر مترجموه جميعا بأنها أبقى الشعر الانسانى كله على الدهر • وهذه المقطوعات التى يتحدث بها مرة الى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسة ، وأخرى الى النيل وعشرات ومئات غيرها ، هى لا ريب خير ما تغنى به شلى معبرا عن صلته بمملكة الجمال فى الوجود • ولقد تغنى فى هذه المقطوعات كما تغنى فى مواضع كثيرة من قصائده الكبرى فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسها له ، فاذا بك وقد قرأت شلى محسا بها لامسا اياها معترفا بأنك أنت الذى كنت عاجزا عن رؤيتها بحسك واكتناهها بقلبك • وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة فى الوجود • بل أن لنثره

من هذه القوة ما لشعره ، وان كانت موسيقى شعر شلى مما يزيد فى قوة خلقه حياة وقوة ٠

ولشعر شلى جوانب شتى لمح القارىء بعضها فيما قدمنا له من ترجمته ٠ فثم جانب حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها و (روح الوحدة) و (أبيسشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب خير تعبير ٠ تترنم القصيدة الاولى بيأس الشاعر وآلامه وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمسا فى العدم راحة من آلامه ، واجدا فى خيالات الحب لهذه الاعرابية التى مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن الى الموت سكونها الاخير ٠ وقصيدته الثانية هى قصيدة الجمال والحب مجسمين فى أمليا ففيانى ٠ أما الكثير من مقطوعاته فيتضوع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف فى شعر غير شعر شلى ٠ فلقد كان من عباد جمـال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الانسانى مجسما ٠ وكأنما كان جسمه يصبو الى هذه الاجسام التى تتمثل فيهـا الروح الانسانية بكل نوازعها معنى الجمال الانسانى ٠ لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال فى خيال قسرته عليه فضيلته وألزمته اياه آراؤه ومبادئه ٠ لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا اليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله ولخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال ٠ وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجدون فى صبوة الجسم الى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسعى اليه الحب بل كل ما يحرك فى النفس هذه العاطفة ٠ وهذا المعنى الذى تراه صريحا جليا فى شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس الى نفوس كل من أحببنه من النسوة ، وبما يشبه اليأس الى نفس مارى أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة ٠ فالمرأة التى ترى فى فضيلة شلى معنى من معانى الرواقية والزهد فى الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص فى الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها ٠

على أن جمال المرأة وان زان كل جمال فى الوجود وتوجه فليس ما فى الوجود سواه من جمال أقل الهاما لنفس الشاعر

وتحدثا الى قلبه · بل ان كثيرا من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالا وزينة بمقدار ما تزينه هي وتجمله · ولئن كنت ترى هذين اللونين من الجمال مقترنين أكثر الاحايين فى نفس أكثر الشعراء ، الا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية ايمانه فى الحياة · وهو فى هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسا · وهو لهذا كان يريد أن يفصل بين المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال فى مثله الاعلى ، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة ما لم يصحبه روح جميل هو الآخر ·

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائده · المدينة الفاضلة بما فيها من اخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة · المدينة الفاضلةالمنزهة عن دنيا الشهوات ، السامية الى مكانة هى وحدها الجـديرة بالانسانية المهذبة · و (الملكة ماب) و (بروموتيه) و(سنسى) نفسها اندفاعات صادقة فى الدعوة الى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدى اليه الجمـود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا فى الروح الانسـانية تحكما ينتهى بها الى فسادها وذلها · ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحا فى (سنسى) منها فى أية قصيدة أو رواية أخرى · فقصـة هذه الرواية التى وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب فى صف روايات شكسبير ، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بعفاف ابنته بياتريس · وشعرت الفتاة بالكر يهةالتى يريدها أبوها عليها فدبرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعا · وانما لجأوا الى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا الى البابا والى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفا · وكشف الأبالمؤامرة فشكاهم الى قداسة البابا فأمر باعدامهم وفاقا لارادة الكونت الذى اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات · ولو أن العدل أخذ مجراه فى هذه المؤامرة لكان (سنسى) هو الخليق بأن يجزى أشد الجزاء · لكن اعدامه اعداما للاموال الطائلة التى كان يغدقها على

الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وان كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق الجماعة على حياة الرذيلة ما دامت تفيد منها ، ثم لتثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار هذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين ٠

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالا لهما هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه ٠ وطبيعى أن كان اقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون ٠ فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها فى واقع الحياة ٠ ولئن صح أن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلبيرون أن يزهى على صاحبه وأن ينظر اليه مشفقا عليه ٠ لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله الى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين خلالها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين لتفضيله عليه ٠٠

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثرا من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه ٠ وقد عرف أثنـــاء مقامه بكازاماني بالقرب من بيزا أن صديقه لى هنت فى عوز فدعاه الى ايطاليا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى ايطاليا يكون لها امتياز السبق الى نشر قصـــائد بيرون ٠ وفيما كان هنت فى طريقه الى بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيدا بيخته سعيدا بزورق صغير صنع له كى ينقله وصاحبه وليمز من اليخت الى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطىء ٠ وكان كثيرا ما يستلقى أثناء رحلاته على الماء تاركا السفين يلعب به الموج ذاهبا هو فى تيهاء تأملاته وأحلامه ٠ فاذا عاد الى داره التمس فى مجاوراته مكانا منعزلا بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه للحياة وللحرية تارة ولزوجه مارى طورا ولجين وليمز التى أصبحت ربة شعره فى هذه الفترة الاخيرة أكثر الاحايين ٠ وكثيرا ما كان ينقضى النهار وهو فى عمله عند جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتبا ، ناسيا أثناء ذلك طعـامه وشرابه ، مكبا على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجه وكان صاحبه ترلونى يذهبان اليه ينتشلانه من عالمه الجميل السعيد

ويردانه الى الحياة التى يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد •

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله فى ليفورنو ، ومن هناك ذهب به الى بيرون فى بيزا ليتموا الاتفاق فى شـأن الجريدة التى تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها • ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقزز الى نفس بيرون ، فقد ظل به شلى حتى انتهى بالزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للادب وللشعر حياته • فلما آن له أن يرتحل عائدا الى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة ، حتى لقد تردد ترلونى الذى قضى فوق لج البحر حياته فى أن ينصح لهما بالسفر • لكن شلى كان اذا اعتزم فعل • فاصطحب صديقه وليمز وغلاما معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهما زوجاهما فى ذلك اليوم الذى انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر • وانقضى الثلاثاء والاربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما، وذهبتا الى ليفورنو باحثتين عنهما ، وعلم ترلونى بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا فى زورقهما • وأخذ نفسه بالبحث على شاطىء البحر ما بين ليفورتو وكازامانى حتى اذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الغائصون بجثة عبثت الاسماك بوجهها وان لم تخف معالمه • وألفى ترلونى فى جيب الجاكتة كتاب أسكيلوس فلم تبق لديه ريبة فى أنها جثة شلى • ثم لم يطل بالغائصين البحث حتى عثروا بجثة وليمز • ودفنهما ترلونى فى الرمل ثم ذهب مكتئبا حزينا الى كازامانى : وحاول أن يدخل فخانته قواه فجعل يدور حول المنزل حتى لمحته خادم ، أخبرت سيدتيها بالأمر • فما لبثتا أن رأتاه حتى تبدد كل وهم من رجاء بقى عندهما وحتى انهدتا الى الارض صعقتين قضى عليهما الترمل والهم •

ولما أفاقتا ذكرت مارى ما كان يرجو زوجها أن يدفن فى مقابر الانكليز بروما • لكن نقل الجثة من بيزا الى روما غير جائز بحكم قانون البلاد الا أن تحرق الجثة وتنقل بقية التراب منها • ففى ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، وقف لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى فوق رمال

الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول • وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه • ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم تبدأ النار بعد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقي من رفات قيثارة الشاعر الانكليزى شلى • ويحمل ترلونى الحفنة الى الارملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هو ولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات ابنه وليم • ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره وان كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الانجليزى عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه وتبعثان الى كل ما تنشدانه وتترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما تنشدانه وتترنمان به انسانا أو طيرا أو حيوانا أو جمادا أو مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قرونا ودهورا بعد موت باعثها •

« انتهى »

العدد الثالث من

كتاب روز اليوسف

أيام لها تاريخ

بقلم احمد بهاء الدين

العدد الثانى

يناير سنة ١٩٥٤

يصدر عن دار « روز اليوسف »

الاشتراكات

١٢٠ قرشا عن سنة داخل القطر .

٦٠ قرشا عن نصف سنة داخل القطر .

١٨٠ قرشا عن سنة خارج القطر .

٩٠ قرشا عن نصف سنة خارج القطر .

رئيس التحرير المسئول : فاطمة اليوسف

جميع المكاتبات والرسائل ترسل باسم « روز اليوسف »

« كتاب روز اليوسف » بريد البرلمان ـ شارع محمد سعيد باشا

تليفون : ٢٠٨٨٥٠ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨


كتاب روز اليوسف
مدرسة السياسة